الهروب من النسيان

محمد علاء نصار

اسم الكتاب :الهروب من النسيان

اسم الكاتب : محمد علاء نصار

تصميم الغلاف : مي مجدي

تنسيق وتدقيق لغوي : نورهان هاني

رقم الإيداع : ٢٠٢٤/٢٧٣٣١م

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٨٧٩١-٥٤-٩

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

الهروب من النسيان

مؤسسة الكاتب العربي
The Writer Operation

" إهداء "

أحببت أن أنوه أنه لا خير فينا إذا لم نذكر الفضل وقد كان
فضل الله عظيماً فالحمد لله والشكر .
أما بعد , فهو فضل ذلك الرجل الذي أفنى
جُهده وعَمله وماله.
ذلك الذي كان فضله ومازال علي كثيراً
الذي دائماً ما كان يدعمني ويحتويني
ويقدم العطاء والحكمة .
قدم ومازال يقدم الكثير أشكرك على كل شيئ
" أبي الحبيب الغالي"
كان فضل الله ثم فضلك وعطائك
الذي لا ينضب ولا ينقطع .

" أحبك "

الفصل الأول

في لحظةٍ ما يتلاشى الوعي، ويتجلى الوجود في عالم مظلمٍ من اللامعرفة، تنبعث أنفاس التساؤلات من قلب العتمة، تلك الأسئلة العميقة التي تُحفر في أعماق الوجدان وتفتح أبواب اللاوعي.

مَن أنا؟! وأين أنا؟! كيف وصلت إلى هنا؟! تلك الأسئلة تهزُّ الروح وتزيد الفوضى في العقل المضطرب.

"في عالم الضباب الكثيف الذي أحاط به استيقظ البطل، روحٌ تائهة في بحر من الغموض، فاقدًا ذاكرته ومعرفته بكل ما مضى، استلقى على سريره، فتح عينيه على واقع جديد، واقع عجز عن تحديد مكانه أو زمانه.

لم توجد ذاكرة لتهديه، لكن هناك شيئًا تأجَّج في داخله، شيئًا علم أنه لم يكن مجرد كائنٍ في الفراغ، بل كان جزءًا من شيء أكبر، أكبر بكثير".

بين طيَّات هذه الرواية ستجد نفسك وسط عاصفة من الأحداث، ومتاهات من التساؤلات، ورحلة داخلية إلى أعماق الذات، هناك في عالم مليء بالتناقضات والأسرار، إذ يتلاقى الواقع بالخيال، وتتداخل الأبعاد، تتشكل قصة بطلنا.

هذه ليست مجرد قصة عادية، بل هي رحلة ملحمية في عالم مجهول، إذ يخوض المرء معركة دائمة بين تساؤلات الذات وشهوة البحث عن الحقيقة، وسط ذلك الصراع ستتلاقى المشاعر والأفكار، ويتكشَّف الكثير من الحقائق المخفية في أعماق الوجدان، فهل سيجد الطريق؟

تبدأ الآن رحلة لا تُنسى في عالم الشك والغموض والتحديات، استعد لاكتشاف حقيقة لا تُرى بالعين المجردة، بل بعين الروح المتأججة بالبحث عن الذات، إنها "رحلة الهروب من النسيان".

تنفتح الأبواب على عوالم تنبثق منها الرؤى والأحلام، تتراقص الأفكار وتلتقط القلوب نغمات الوجود، في هذه الرحلة تحمل اللحظات العابرة معانيَ عميقة، وتتناغم مع تداخلات الحياة لتُكوِّن لوحة معقدة من البحث عن الذات.

ليست رحلة للبحث فحسب، بل هي تجربة داخل عقل الإنسان وروحه، إذ يقود النسيان إلى اكتشاف الهوية وإنماء الروح، في ذلك الفضاء المغمور بأسرار الذات، يتلاشى الزمان وتندمج الأبعاد في رقصة محكومة بقوانين خفيَّة، بل تتجاوز حدود الحقيقة والخيال لتكون مغامرة لا تُنسى.

في ليلة مظلمة، امتزج الصمت بهمسات الزمن، تعلم أن الهروب ليس مجرد تفادٍ للحقائق، بل هو بحث عن التحوُّل وتجربة في أبعاد الوجود والذات.

في تلك الرحلة جسَّد البطل جوانب متناقضة للذات، تعامل مع الخيبات والآمال بشكل يمزج بين الواقع والخيال، جعل من كل فصل محطة لاستكشاف أعماق الذات وجوانب الإنسانية.

****

في لحظات الاستيقاظ من الغفوة أو النوم، أو كنت أظنها كذلك، قبل أن أفتح عينيَّ آلمني رأسي، كان أول ما أدركته الألم، صداع كاد يشق رأسي لأجزاء.

استيقظت غير مدرك لشيء، "ما الذي حدث؟". لم أعرف لمَ كنت هناك؟ فقط ألم لا أعرف له سببًا، الشيء الذي لاحظته فورًا كان الفراغ الذي عمَّ أفكاري، كما لو كانت ذاكرتي غرقت في بحر من الغيم.

في تلك اللحظة سيطر على ذاتي شعور الفزع والضياع، تقاذفتني المشاعر بين أمواج الحيرة والقلق، كما لو كنت قد فقدت الطريق في ليلة مظلمة ولا أعرف طريق العودة.

لم تكن هناك مشاعر أتشبث بها، والنقاط المظلمة بعقلي بدأت في التلوُّن بألوان الاستنكار والتساؤل.

"هل كنت أحلم؟". كأنه صباح غابت الشمس فيه.

خوف ولكنه من نوع آخر، بدأت يداي تتحسَّسان ما كان حولي وأنا مستلقٍ على فراش ناعم رائحته كانت جميلة، "لكن أين أنا؟!". في غرفة الضوء بها خافت، بعض خيوط من ضوء السماء تسللت إلى الغرفة من خلف ستائرها، كان نظري مشوشًا، حاولت إدراك ما حولي، ربما ساعدني ذلك، تعرفت إلى الأشياء حولي بالغرفة، لكن معنى مهم لم أستطع إدراكه بوضح، كتلك الأشياء حولي.

لم أعلم أين كنت؟ كيف وصلت هناك؟ ربما منزلي ربما لا؟".

أدركت ذاتي، لكنني لم أعرفها، لم أعرف مَن أكون، كان ذلك الجزء الأكثر رعبًا وجنونًا.

وسط تلك الفوضى شعرت بمزيج من الحيرة والضياع تنافسًا مع الاستياء والقلق، كما لو أن شخصًا آخر يعيش داخلي، يشاهد مسرحية الحياة من دوني، كأنني عبرت الحدود بين الوعي والغيبوبة.

حيث الوجود... بدا كأنه مجرد وهم، كلما حاولت فك تلك العقدة، ارتبكت الأمور أكثر.

كل دقيقة مرَّت من دون أن أجد حلًّا، ازداد شعوري بالضياع واليأس، لم أتحمل البقاء هكذا.

دقَّ القلق بابي حينها دقًّا، مرت اللحظات كأنها أيام، وأنا أحاول فهم ما الذي جرى،

لكن من دون جدوى، قفزت إلى قدمي ركضًا، كان رأسي يؤلمني بشدة، أكثر ما كان يهمني هو محاولتي فهم ما الذي حدث، أسرعت نحو باب الغرفة لأجد أي شيء، الظلام أعاقني، ناديت بصوت عالٍ منهك ومتقطع صرخت:

"أحد هنا؟ ساعدوني... هل هناك أحد؟".

رجوتهم المساعدة.

لم يجبني أحد!

فقط صمت مقبع وهدوء، كان المكان كبيرًا، لم أستطع تمييز شيء، ركضت مسرعًا لعلّي أجد مخرجًا، لكن خطواتي كانت غير معتادة على ذلك المكان.

نظراتي الحائرة في الظلام المنتشر لم تسعفني، أدركت حينها أنني وحيد في ذلك المكان، لم أجد من يجيب، لا سكان سواي، فما صنعته من ضجيج وتكسير وارتطام بالأشياء حولي كان كفيلًا بأن يُخرج أحدهم عن صمته، لكن لم يكن هناك أحد.

قلبي! سمعت فرط خفقانه، كاد يُقتلع من مكانه، وصدري اعتصره ألم، خوف تسلل إلى جسدي كله، يداي ارتعشتا ولم أكن أدرك شيئًا.

وسط كل ذلك، ووسط الهدوء والصمت، كان لا بد لي أن أكسره بصراخي.

صرخت، صرخت عاليًا بحرقة، فأنا لم أكن أعرف ما عليَّ فعله غير ذلك، لم أفعل شيئًا لأجد نفسي هكذا.

درجات سلالم وخطوات أخذتها أنزلتني للطابق السفلي، رأيت حينها مدخل المنزل، هرعت من خلاله هاربًا لعلِّي أجد بالخارج من يساعدني.

عادت أنفاسي، كأنني خرجت من قبر مغلق، وجدت أمامي ساحة خضراء وأشجارًا متناثرة في كل مكان، التفتُّ لألقي نظرة على ما كنت بداخله، فيلا ذات واجهة حجرية ونوافذ زجاجية، وتلك الأشجار حولها، يا لتلك الفخامة والجمال!

دارت في رأسي التساؤلات...

"كيف لي أن أقيم هنا؟ هل هذا منزلي حقًّا؟".

أكملت هاربًا لعلّي أجد النجدة في أحدهم، تفاجأت أنني في فيلا على تلٍّ كبير خارج حدود ضوضاء المدينة، رأيتها من بعيد تتلألأ بأضوائها، كنت هناك وحدي تمامًا، لا أحد حولي.

أمسكت رأسي من هول ما كنت فيه، لا أحد... وحيدًا، لم أجد من يقدم المساعدة، تلاشت الآمال داخلي ببطء، تزايدت الشكوك، كلما مرت اللحظات ازداد الشعور بالوحدة والعزلة، حينها بدأت المخاوف تنمو بداخلي.

أصبحت المواجهة مع الظلام وحدها تكفي لجعل القلب يرتجف، والعقل يسبح في بحر من الأفكار المرعبة والمرتبكة، صرت مرغمًا على العودة للداخل مجددًا حيث بدأ كل شيء، لم أجد مكانًا آخر أذهب إليه، ولا أحد يرشدني، كان ذلك كفيلًا أن تتساقط الدموع من عيني.

عدت للداخل مجددًا بين أحضان الهدوء والصمت والظلام، اخترقتُ الظلام والصمت بصرخات الألم الذي اعتصر صدري، خائفًا وحيدًا، صرخات تخللتها ضحكات من نوع مأساوي معلنة هزيمتي وقلة حيلتي، جلست بالخارج أستند بظهري إلى أحد جدران الفيلا محتضنًا نفسي غارقًا في وحدتي، أجهش بالبكاء والصياح.

بعد لحظات من الانهيار بدأت بتجربة شعور جديد، إذ نفرت عروقي وفارت الدماء بها كأنها تغلي، غاضبًا من كل شيء كان حولي ومن نفسي.

" كيف لي ألا أتذكر أي شيء؟ ما الذي حدث؟ وكيف؟".

صرخت مجددًا، صدح صدى صوتي في السماء، ونظرت إلى أعلى لعلِّي أجد في سماء تلك الليلة ما يدلُّني أو يهدئ من روعي.

لحظات صمت تخللها نسيم الهواء البارد معانقًا جسدي برفق ومداعبًا وجنتيَّ بِرِقَّة، وجدتها... بل أقسم أني سمعت صوتها ينادي:" لا تخف أنا ليلى، لستَ وحدك، حاول، حاول مجددًا لأجلي". كأن يدًا من السماء مُدَّت لي، "مَن تلك التي تسكنني؟".

في تلك اللحظة ولوهلة أحسست بشيء من الراحة، وعدت إلى عقلي مُحدثًا نفسي:

"يا هذا، أنت لن تصل إلى أي شيء بما تفعله الآن".

كان عليَّ أن أعيد جمع أشلائي وأن أحتفظ بما تبقى، لكي أستطيع المواصلة، كانت روحي تأبى الاستسلام لما وجدت نفسها فيه، فإن كان هناك حلٌّ فلم أكن لأجده بتلك الطريقة، يجب أن أهدأ حتى أستطيع أن أفكر جيدًا بما سأفعل حينها.

رفعت رأسي وانطلق بصري نحو الأفق أمامي... كنت مصممًا على النجاة، وعلى استعداد لفعل كل شيء ممكن للخروج من ذلك السجن، حتى لو كان الأمر يتطلب القيام بما هو صعب أو مستحيل، لم أكن لأتوقف حتى أحرر نفسي من قيود ذلك الظلام.

أثيرت في داخلي رغبة جديدة في البحث عن الخلاص حينها، أخذت عدة أنفاس شهيق تلاها زفير طويل أزحت به القليل ممَّا كان بداخلي، في محاولة لتهدئة عقلي المضطرب والمليء بالكثير.

وقفت مجددًا على قدميَّ وبإصرار اعتراني اتجهت نحو الفيلا لإعادة اكتشاف ذاتي، حين باءت محاولاتي لإيجاد من يساعدني بالفشل.

كان لزامًا أن أحاول مجددًا، ولكن تلك المرة حاولت أن أكون أكثر هدوءًا حتى لا تفوتني نصف فرصة لمعرفة الحقيقة، عدت مجددًا لأجد تلك الفيلا أكثر فخامة بالداخل... قاعة فسيحة، أثاث أنيق، نوافذ كبيرة تطل على الحديقة، كلما تفقدت منها جزءًا أذهلتني أناقته وذوقه الرفيع، بها لوحات وتماثيل عريقة، عيناي لم تقعا على ما يشذ، كل ما رأيته بالداخل أراح ناظري.

تحركت في القاعة محاولًا تذكر أي ركن من أركانها، ولكن بلا جدوى، فقط الاستمتاع بما رأيت، كل تلك الفخامة التي توحي بالثراء الفاحش.

"كيف لشخص بهذا الثراء أن يعيش وحيدًا من دون رفقة أو أحد لخدمته؟ لماذا كل ذلك الغموض والعزلة؟".

صعدت الدرج، كانت خطواتي أقل هرجًا وأكثر حرصًا، وجدت نفسي مرة أخرى في ظُلمة الغرفة التي غادرتها، بدا الظلام أقل كثافة، واستطعت رؤية التفاصيل بشكل أوضح، أثاثها خشبي فاخر مع لمسات من الذهب، ثُريَّات كريستالية متلألئة، غرفة ارتسمت بلون الرماد، أجواؤها ممزوجة بالغموض والدراما، تجولت ببطء في أرجائها، كنت أنظر إليها بعين جديدة، محاولًا اكتشاف كل ركن وزاوية بهدوء ووعي أكبر.

استمعت إلى صوت خطواتي وهي تتردد على الأرضية الخشبية، نظرت حولي بعيون حالمة وانتباه، باحثًا عن أي شيء يمكن أن يكون مفيدًا أو مُعبرًا عمَّا حدث هناك.

عدت إلى السرير الذي كنت نائمًا عليه، وبدأت بالتفتيش حوله بعناية، رفعت الشراشف وفحصت كل زاوية من الفراش بحثًا عن أي شيء، تفحصت كل أجزاء الغرفة وكأنني أحاول ترجمة كل طابع وكل نقش على الحائط إلى لغة لتخبرني بقصة ما حدث هناك.

بدا الهدوء والسكون المحيطان مُطمئِنَين، أعطياني الوقت الكافي للتفكير والتأمل، ساعداني على استعادة السيطرة على أعصابي وتركيز البحث بحماس، وفي ذهني كان ينمو القرار بأني لن أستسلم، وسأستمر حتى أجد إجابات.

جلست على حافة السرير باحثًا في أعماق ذهني عن التساؤلات التي تراودني، أصبح التركيز على البحث حينها هو هدفي الرئيس في الحياة، وكأنه أملي الوحيد لفك طلاسم ذلك الغموض.

قبل كل شيء "مَن أكون؟".

هذا التساؤل لم يفارقني، كما لو كان بوابة الفهم الأولى لمعرفة هويتي الحقيقية.

ثم فكرت فيما يمكن أن يكون حدث لي، تسلل ذلك التساؤل إلى عقلي مع كل دقيقة تمر من دون إجابات، "هل كنت ضحية لحادث ما؟ هل تعرضت لهجوم؟ أو ربما تعرضت لتجربة ما؟ لا أعلم".

ومن ثمَّ تساءلت:" هل يوجد شخص ما يعلم ما الذي حدث لي؟ هل هناك أي شخص يمكنني الوصول إليه لمساعدتي؟!".

تلك التساؤلات تحركت بداخلي ببطء مثل أمواج هادئة تحاول تسوية البحر الهائج لعقلي، بحثت في الذاكرة المشوشة عن أي دليل قد يلقي الضوء على الغموض الذي أحاط بي، وأن أعيد ترتيب الأولويات، لأبدأ في رحلة استكشاف الحقيقة.

بينما كنت هناك وحيدًا في ذلك العالم المشوش، بحثت في كل زاوية من الغرفة عن أي دليل، كانت هناك مستقرة في انتظاري، مرآة مغطاة بقطعة من القماش الأبيض، وكأنها أحد الطقوس السرية.

"ما فائدة مرآة مغطاة يا تُرى؟".

ذهبت مترددًا لأقف أمامها، أزلت الغطاء، مرآة الحقيقة، تفحصت وجهي باندهاش، لكن الصورة التي ارتسمت عليها لا تزال مجهولة أمامي، ذلك الوجه لم أكن أعرفه، تفحصته بعناية، مررت بأناملي عليه محاولًا تذكر أي شيء، كانت لحظات مرعبة.

"أي قدر يجعل الشخص غير مدرك ملامح وجهه!".

وكأنني كنت أقف أمام شخص لا أعرفه، ولكنها كانت صورتي وكان ذلك وجهي.

جربت التركيز على ملامح الوجه الذي كان غريبًا لي.

"كلما نظرت إليه تلاشت كل المعاني والذكريات في عقلي المشوش، كل لمحة استرقتها لعينيَّ كانت تخفي قطعة صغيرة من اللغز، ذلك الوشم على كتفي! من أكون؟!".

لكن لا شيء بدا مألوفًا، ازداد الغموض وازدادت الحيرة، فأنا لم أجد حينها شيئًا أو مؤشرًا قد يدلني على الحقيقة.

غرفة نوم فخمة بأثاثها ورونقها، ملابس ملقاة في أرجائها، اعتقدت أنها تخصني، لكن لا شيء، بينما كنت صاعدًا للأعلى أبحث عن غرفة النوم حيث خرجت في البداية، تذكرت وجود تلك الغرفة بالطابق نفسه، "لعلِّي وجدت بها شيئًا ما يساعدني".

أسرعت نحوها بلهفة فقد بدأ اليأس بالتسلل مجددًا، فتحت الباب بهدوء وحذر، فأنا لا أتذكر المكان ولا أتذكر شيئًا على الإطلاق، وجدت غرفة استراحة جانبية ومكتبًا دائريًّا ضخمًا، شعرت هناك بشيء ما مختلف، أضأت الثريا في سقف تلك الغرفة لأتفاجأ بصورة ضخمة معلقة خلف المكتب الكبير في إطار ذهبي وخلفية داكنة مخيفة، عليها غطاء فلم أرَ جيدًا ما خلفها.

اعتقدت حينها أنها تخص صاحب تلك الفيلا الخاوية، وذلك هو مكتبه الخاص، دفعني ذلك الشعور حينها لإزاحة الغموض والكشف عن الحقيقة، بخطوات مترددة توجهت نحوها، وبهدوء سحبت الغطاء إلى أسفل، لأتفاجأ بتلك الصورة!

كانت صورة لي، جسَّدت الغموض والثراء الفاحش الذي يقبع في أرجاء ذلك المكان حيث استيقظت.

شعرت بشيء من الأمان، تأكدت أن ذلك المنزل لي، ذهول جعلني أجلس على الكرسي خلف المكتب محاولًا استيعاب ما حدث، والتفكير مجددًا فيما دار في عقلي المشوش بغياب الذاكرة، بدأت بتفقد المكتب، وجدت بطاقة ورخصة قيادة، تفقدتهما لأرى هوية صاحبهما واسمه، كانتا لي، كانت تلك البطاقات تخصني، مدون عليها اسم "مراد توفيق".

"مراد توفيق"... كان ذلك أول ما اكتشفته عن هويتي الضائعة، اسمي، حل أول لغز "مَن أكون؟".

كان انتصارًا قد حققته في تلك اللحظة، ويا له من انتصار.

"ما الذي حدث يا مراد؟".

تفصيل صغير كهذا كان كفيلًا بأن يصيبني بقليل من السعادة، كانت المشاعر متضاربة ومختلطة لا توصف، فقد اكتشفت من أكون، عرفت اسمي، والآن تجدد الأمل أن أكتشف باقي تفاصيل قصتي التي بدأتها.

اعتقدت في تلك اللحظة أن الوحدة التي أعيشها كانت فيما مضى من اختياري، حينها دفعت الثمن غاليًا لها، فأنا لم أجد من يساعدني.

سيارات فاخرة ومنزل فخم ووحدة باختياري... "لماذا يكون ذلك هو شكل الحياة التي قد أختارها لنفسي؟!".

بعد أن هدأت بدأت الأفكار والتساؤلات تصبح أكثر ترتيبًا وأقل تعقيدًا، بقي الفضول والخوف حاضرين، أحدهما لم يفارق ذهني والآخر تراقص بين أضلعي، تدفقت المشاعر والأفكار على مدار تلك اللحظات.

ذلك هو اسمي... مراد توفيق، كلما تكررت الكلمة في ذهني بدأت قطع اللغز تستقر في مكانها، أنا مراد توفيق، ذلك الاسم الذي يحمل الكثير من الألغاز والذكريات المفقودة، حاملًا بطاقة السفر لذلك العالم المجهول الذي كنت أعيش فيه.

بحثت في ذاكرتي، حاولت جاهدًا استحضار أي معلومة، أي حدث، أي شيء يمكن أن يلقي الضوء على ذلك الغموض الذي أحاط بي لكن كل ما وجدته هو الفراغ، مشوش، أفكار مشتتة، كأن قطع اللغز لا تزال متناثرة وتنتظر لحظة الانضمام.

أغلقت عينيَّ بتركيز شديد، حاولت التركيز على اللحظات الأخيرة قبل فقدان الذاكرة ولكن الصور تلاشت كالدخان، والذاكرة بدت كقطعة من الحلم الذي تلاشى ببطء أمام عينيَّ... سكنني القلق وضمَّتني الحيرة، فأنا لم أعرف حقًّا من أكون.

"لم أعرف كيف وصلت إلى تلك الحالة؟ وما قصتي؟".

لكن مع كل نبض لقلبي وكل شهيق تنفسته إزداد إصراري على مواجهة ذلك الغموض، وحل اللغز الذي عصف بذهني، كنت أعلم أن الطريق ستكون صعبة، لكن كان لا بد لي من المُضي قدمًا، أخذت نفسًا عميقًا، ومع كل حركة قدم خطوتها في ذلك الطريق المظلم تمسكت بقراري بقوة، البحث عن الحقيقة وراء تلك الألغاز، بغض النظر عمَّا ينتظرني في الطريق للحلول، كان ذلك هو العهد الذي قطعته على نفسي، ألا" أستسلم أبدًا".

عدت لأتفقد مكتبي، هاتف جوال وبعض الأوراق مبعثرة على المكتب، تفقدتها بحرص وحذر، فلم أرد أن أفقد أبسط أو أدق تفصيلة أتيحت أمامي.

الصمت الذي أحاطني كثيف، مع صدى طفيف لخطوات الحياة في الأفق، غير أن ذلك الصمت لم يكن محاطًا بالهدوء، بل كان كفيلًا بإعطاء الانطباع البعيد أنه شاهد على أحداث لم تكتمل بعد.

حاولت استرجاع ذاكرتي لكن بلا جدوى، كأنني شعرت بتيارات متقاطعة من المعلومات تسري بعقلي كأوراق الكتاب المبعثرة، لم أستطع ترتيبها بأي شكل، الصور ظهرت أمام عينيَّ، لكنها كانت لحظات مهزوزة في محطة قطار لم أستطع اللحاق به أو أن أحدد زمانًا ومكانًا واضحين.

بينما أبحث في الأوراق المبعثرة على مكتبي رفعت كتابًا تألق بتأثير مميز، فتحت أولى صفحاته، وجدت نصًّا كُتب بخط غريب، كلمات تبدو كأنها اختزلت جوهر حياتي السابقة. "في البحث عن الذاكرة، تجد الحقيقة".

كانت تلك الجملة متبوعة بـ"ابحث عني وأعدك ستبتسم في النهاية".

تلك الكلمات تركت رسالة غامضة تقاطعت مع رحلتي في ذلك العالم العجيب.

اللحظات التي عشتها تجلَّت في أوجه متعددة، مثل خيوط غير مترابطة تداخلت في نسيج الحياة الغامضة، وسط ذلك البحث كان اليأس من الوصول إلى الهوية المفقودة، شعرت أنني أعيش قصة لا تتبع قواعد الزمن الطبيعية، إذ يتداخل الماضي والحاضر بطريقة لا تُصدق، بينما أطالع غرفتي شعرت بوزن غامض أثقل كاهلي، كانت هناك أفكار ومشاعر عميقة سكنت داخلي، تداخلت مع أطياف الذاكرة المفقودة.

مشاهد الفيلا والغرف والمكتب لم تكن فقط لمحات من الماضي، بل أحاسيس ومشاعر، رغبات تراقصت في زوايا الوعي، تلك الفيلا لم تحتفظ بالذكريات، بل باحت بأسرار النفس.

التقطتُ من على المكتب كل ما استطعت، كانت أجواء تلك الغرفة غير اعتيادية لم تجعل البقاء بها مريحًا، عدت إلى الغرفة حاملًا معي قطع اللغز، كأنني أبحث عن شخص لا أعرفه حقًّا... لغز مراد توفيق.

كانت تلك الأغراض تُصرح بحياة سابقة، لكن كل قطعة كانت تعزز اللغز بدلًا من حله، كان أول ما لفت نظري مفاتيح فضية عتيقة ومنقوشة لم تكن تنتمي إلى ذلك المكان، كانت تلك المفاتيح تبعث على الشعور بالأمان، لكن في الوقت ذاته كانت تتناقض مع الفوضى التي تسللت إليَّ، المفاتيح مغرية، وأثارت الرغبة في اكتشاف المزيد من الأسرار.

في طيَّات الكتاب الذي فتحته رسائل متساقطة وصور قضت أزمنة طويلة، كل ورقة وكل صورة كانت تروي جزءًا من قصة، لكن القصة تشبه لغزًا معقدًا لم يكتمل بعد، كل تلك الأغراض كأنها رسائل صامتة تتحدث بلغة الأشياء المفقودة والذكريات المتناثرة كانت تدفعني إلى تفحُّص أدق التفاصيل، وكأن الإجابات قد تكمن في خفايا تلك الأشياء العادية، في محاولتي فهم لغز حياتي بدأت تلك الأغراض تشكل لوحة فنية تتألف من تفاصيل صغيرة، لكنها كانت تحمل أوزارًا كبيرة من الغموض والتساؤلات.

تفقدت الهاتف لعلِّي أجد ما يفيد أو أستطيع الاتصال بأحدهم لمساعدتي، بمجرد لمسي أضاء وفتح ذلك الجهاز الصغير، تصفحته، كنت متفائلًا أن يحوي الكثير، تفقدت سِجلات المكالمات، لم توجد به أسماء، كانت كلها أرقامًا لم تفصح عن هوية أصحابها.

"اللعنة عليك مراد... أنت لا تساعدني هنا".

حتى الهاتف لغز، لا أسماء مُسجلة سوى رقم واحد تحت اسم" الحكيم".

"من هذا؟ ولماذا هو الوحيد المسجل؟".

حاولت الاتصال به لكن كان مغلقًا وغير متاح بالخدمة لأتواصل معه.

لا صور مسجلة، لا فيديوهات، لا تسجيلات صوتية، لا شيء، كانت خيبة أمل كبيرة، فقط بضع مكالمات لم يُرد عليها، ذلك كل شيء، لا فائدة منه، وضعته جانبًا وبحثت مجددًا لعلّي أجد شيئًا آخر مفيدًا في تلك الألغاز أمامي.

تفقدت الصور التي وجدتها، تحوي وجوهًا لم أعتدها، ولم أعرف أصحابها، حيرة وفضول اعترياني... كيف وجدت كل تلك التفاصيل ومن دون فائدة؟

بدأت بتفقد كل شيء مجددًا، فتحت شرفة الغرفة، بقيت واقفًا أطالع السماء، المنظر كان جميلًا والنسيم البارد داعب وجهي وتخللني.

ساعات الصباح الأولى بدت مطمئنة مع إشراقة يوم جديد، باعثة الأمل مجددًا في قلبي، نزلت الطابق السفلي بعد أن جمعت كل ما وجدته في حقيبة صغيرة على كتفي، ذلك كل ما كنت أملك حينها.

هاتف ومفاتيح غريبة وبطاقة الهوية والقيادة وبعض الكاش وبطاقات الائتمان وتلك الأوراق البالية القديمة، وبعض صور وجدتها تحمل تعليقات وكتابات لم تُثر فضولي كثيرًا، لم أكن أعرف أصحابها.

"كنت كالغريق الذي تعلَّق بقشَّة".

كان أكثر ما يعتريني الفضول، "أنا غني جدًّا! "منزل فخم وسيارات فارهة في الخارج لا تشير إلى أي شيء سوى أنني فاحش الثراء.

ما طبيعة عملي؟ ربما كنت أدير مجموعة من الشركات أو المصانع. لم أجد شيئًا مؤكدًا، ولكن كنت سأعرف حتمًا هويتي الحقيقية، كنت على موعد لمعرفة كل شيء عنها.

بحثت عن أي شيء آكله بعد كل ذلك المجهود، فقد أحسست بالجوع، توجهت نحو الأسفل لأجد أي شيء أكسر به الجوع الذي أصابني، كنت متأكدًا حتى لو كان البقاء وحيدًا

هناك اختياري، بالتأكيد أحدهم يأتي للمساعدة من حين إلى آخر، لذلك كنت أتوقع زيارة أحدهم قريبًا، فكيف لي أن أهتم بهذه الفيلا بمفردي، اكتفيت بما وجدته من طعام في مطبخ الفيلا، بعض وجبات جاهزة هنا وهناك وزجاجات فارغة ملقاة.

بعد أن تخلصت من الجوع بما وجدته، كانت تجربة قيادة السيارة مُلحة، كنت متلهفًا لتجربتها، قررت على الفور الخروج وتجربتها، كان المكان هناك متسعًا ولن أسبب الضرر.

"سأكون حذرًا وهادئًا، ربما وجدت شيئًا ساعدني". اخترت إحداها وبدأت بالقيادة، الأمر لم يكن صعبًا كما تخيلت، أم أنني لم أفقد مهارة القيادة؟ الأمر كان ممتعًا.

عدت فلربما أحدهم قادم، حاولت التفكير، إذا كان عليَّ مغادرة الفيلا، لم أجد هناك من يساعدني، ربما أذهب للمدينة لأجد من يمكنه مساعدتي، لم أرد البقاء هناك وحيدًا، قيادتي للسيارة شجعت ذلك الشعور بالمغادرة، لكن أسئلة أخرى طرقت باب أفكاري.

"أين هي أسرتي؟ أين زوجتي؟ لديَّ أبناء؟ ربما".

"أين هم؟ لماذا أقيم بمفردي؟ أصدقاء؟ لا أعتقد ذلك أيضًا؟".

اعتقدت أن البقاء هناك لن يساعدني، كان عليَّ الخروج ومحاولة إيجاد أحدهم.

بينما كنت مشغولًا في البحث عن أي مؤشر، رنَّ الهاتف، التقطته فورًا، كانت تلك لحظة فارقة في حياة شخص يبحث عن الهوية.

الهاتف بين يديَّ المرتعشتين، وقلبي ينبض بسرعة، لم تكن لديَّ أي فكرة عن هوية المتصل، لكن الغموض الذي مررت به جعلني متحمسًا للكشف عن المزيد، رددت على المكالمة، صدح صوت من الطرف الآخر بلهجة راقية وصوت قوي :

- "مرحبًا، كيف حالك؟".
- كنت محاصرًا بين شعورين، الدهشة والقلق:
- "بخير".

لم أرد شرح ما أصابني من دون أن أعرف" مَن هو، وماذا يريد؟". رغم السعادة والاشتياق لسماع صوت أحدهم كنت أبحث عن أي شخص يساعدني.

"سيدي أعتذر، أنا المنسق من مكتب يوسف عز، أحدثك بخصوص حفل اليوم، أعتقد أنك مستعد للانضمام إلينا".

تسارعت نبضات قلبي مع كل كلمة... حفل من؟ وأين يُقام؟ لماذا أكون جزءًا من حدث لا أعرف عنه شيئًا؟

لكن رغم كثرة الأسئلة التي لاحت في ذهني، فإن الفضول ورغبة استعادة جزء من حياتي دفعاني لحضور ذلك الحفل.

- "حسنًا سأكون هناك".
- "سنكون في انتظارك سيدي".

انتهت المكالمة قبل أن أتمكن من طرح أي سؤال آخر، لكن فكرة أن تكون الإجابات على بعد خطوة جعلتني أنتظر ذلك اللقاء بشغف وتوتر.

وسط ذلك الغموض والفقد، وجدت نفسي أمام حاجة مُلحة للاستعداد للحفل الذي دُعيت إليه، كان ذلك تحديًا جديدًا انتظرني في العزلة التي كنت قد بدأت اعتيادها، الذاكرة كانت تعكس حياة منفصلة عن الأحداث.

كان عليَّ البحث عن ملابس لتلك المناسبة، بدأت في استكشاف الغرفة بحثًا عن خيارات للملابس، كل تحرك كان خطوة في محطات البحث عن هويتي، في إحدى الخزائن وجدت مجموعة متنوعة من الثياب، بين الملابس الساحرة

والأزياء الرسمية. كانت تلك الاختيارات كالألوان المختلفة في لوحة فنية، كل لون يحمل ذاكرة خاصة ولحظة مفقودة، اخترت ما يناسب اللحظة، لكنه لم يفارق ذلك اللون الأسود الذي كان يلامس بعض الأطراف التي كنت أعيشها.

في أثناء البحث لم يكن هناك أي دليل على وجود أشخاص آخرين في الفيلا، وكأن الزمن توقف عند حدود الغرف التي كنت فيها، رغم تفتُّحي لاستكشاف كل زاوية، فإنني واصلت الشعور بالعزلة.

بعد أن ارتديت ملابسي ألقيت نظرة في المرآة مجددًا لرؤية الشخص الذي أصبحت عليه، إذ ارتسمت ملامح المتشكك في هويته، الأسود كان يليق بتلك اللحظة، لكن عينيَّ الباحثتين عن الحقيقة كانتا تعكسان تساؤلات عميقة.

شعرت بحاجة للتحقق من مكان الحفل، استخدمت الهاتف للبحث عن المزيد من التفاصيل، وجدت أن الحفل سيقام في قصر يوسف بِك عز الدين، في إحدى المناطق الراقية خارج المدينة.

كان ذلك تحديًا جديدًا، كانت أولى مغامراتي خارج حدود العزلة التي أصبحت جزءًا من حياتي، في تلك اللحظات كانت الفيلا تنبعث بروح جديدة.

وسط ذلك اللغز الحي وجدت نفسي غارقًا في بحر من الانفعالات والأفكار المتشابكة، كل تساؤل تجدد في عقلي، وكأنه شكَّل مصدرًا للضجر والقلق، تسلل الغضب إلى قلبي كلما تذكرت أنني فقدت جزءًا من حياتي، في حين أن الفضول كان يدفعني للتنقل بين الأفكار بحثًا عن الجواب الضائع.

في لحظة من الانقضاض على حواسي، ظهرت فكرة طرحت نفسها مثل أملاح البحر على الشاطئ، فكرت في الرحيل عن ذلك المكان، الفرار إلى مكان يوفر لي لحظات من السكينة والهدوء، بدأت تخيُّل نفسي في مكان بعيد، حيث لا يوجد إلا صفاء وسكون.

لكن التفكير في الابتعاد أثار تساؤلات جديدة، هل يمكن أن يجد ذلك الانسحاب المفاجئ مأوى لتلك الأفكار المشوشة ويُعيد ترتيبها؟ أم أنها ستعود إلى الدوامة نفسها من التساؤلات في أي مكان أذهب إليه؟

في لحظات الحيرة بدأت تأتي فكرة أخرى إلى عقلي المضطرب، وإن كانت فكرة ترك الفيلا تبدو خيارًا محتملًا، لكني كانت لديَّ رغبة قوية في البقاء بذلك المكان، ربما كانت الروح المألوفة للفيلا تحمل في طياتها جزءًا من الألغاز، ربما كان الحفاظ عليها يشكل عنصرًا مهمًا في استعادة ذاكرتي.

كان القرار محورًا للتفكير، وسط تلك الدوامة من العواطف والتساؤلات.

- "هل أبقى في المكان الذي فقدت فيه ذاكرتي؟".
- "أم أغادر للبحث عن هدوء وسكون قد يساعدانني على استعادة التوازن؟ "

في حالة من الترقُّب بدأت في التفكير بجدية في ذلك القرار، إذ كانت الفيلا محطة مؤقتة في رحلة حياتي، ورغم ضبابية الأفق، كان عليَّ الاستمرار في البحث عن الإجابات داخل الأسرار المحيطة بي.

مع تزايدها قررت تأجيل مسألة المغادرة أو البقاء في الفيلا.

في تلك اللحظة كان عليَّ التركيز في الحفل، فقد أصبح الأولوية، رتَّبت للتألق في تلك الليلة، لحظة ارتداء الثياب

كانت مثل لوحة تتناغم فيها الألوان والأشكال، ولكن من دون شك كانت العيون هي المرآة التي تكشف عن الروح، وسط ذلك الضجيج كنت أتمنى أن تكون لديَّ القوة لإظهار ثقتي بالنفس ورغبتي في استعادة الهوية المفقودة.

دفعت نفسي للاستمتاع بلحظة الاستعداد، وكأنني كنت ألعب دورًا في مسرحية غامضة. وفي تلك اللحظات شعرت أن الغموض والتحدي كانا جزءًا من القصة التي أعيشها، وقد كنت ألعب دور البطل.

عند العودة من الحفل ستظل المشكلة تنتظر في أركان الظلام، ولكن في تلك اللحظة كنت أرغب في الاستمتاع بلحظات السعادة والتسلية، لم يكن الوقت مناسبًا لاتخاذ قرارات حاسمة، بل كان وقتًا للاستراحة والاستمتاع باللحظات.

"سأعود لاحقًا، وحينها سأواجه التحدي والقرارات بروح هادئة وأكثر عقلانية، لحظة انقضاض على الحياة بكل تفاصيلها كانت هي الأهم، وسأترك للغد أن يأتي برياح القرارات والتحديات الجديدة".

في ظلمة تلك الليلة بدأت أواجه تحديًا مستعصيًا، هل من المنطق أن أشارك في ذلك الحفل وأنا لا أتذكر شيئًا، الخوف تسلل إليَّ مثل ظل طويل، عبث بجوانب عقلي وجلب الشكوك حول تلك الخطوة التي اعتزمت القيام بها، بدت كأنها رحلة معقدة تناوبت فيها الأفكار السوداوية ممزوجة بالأمل الخافت.

ارتفع صوت الشك في عقلي، حينها شعرت بالخوف حقًّا من المشاركة.

كيف سأواكب ذلك الحدث من دون أن أظهر ما أعاني من فقد للذاكرة؟".

حينها اختبرت الحاضر المشوش في مواجهة الماضي المفقود، في لحظة تأمُّل مُلئت بالجدل داخلي، الحفل كان نافذة حقيقية لأتواصل وأندمج مع العالم وفرصه لكي ألحق بجزء صغير من حياتي الضائعة، كل تلك الأفكار المتضاربة كانت جزءًا صغيرًا من الصراع الذي كنت أعيشه.

وقفت على حافة الهاوية، حاولت أن أدرك التناقض بداخلي، امتزج الخوف بالرغبة في الاستمتاع بلحظات الحياة، كان توترًا مثيرًا.

كأن قلبي نبض بقوة، كنت أسعى للعثور على توازن بين الشك والأمل، بين الخوف والشجاعة، كانت الأصوات في عقلي تتشابك بها الأفكار وتتصارع مع الرغبات.

حاولت أن أتجاوز تلك المعركة، بحثت في ذاكرتي عن إجابات لعلّي أكتشف بعض عتباتها الضائعة، لم أسعَ للهروب من واقعي ذلك فقط، بل أردت فهمه ومواجهته.

"لم تكن الشجاعة في الهروب، بل التصالح مع الحياة نفسها".

رغم ما كنت أواجهه بداخلي، شعرت بقوة غامضة دفعتني إلى الذهاب للحفل، رغم كل الشكوك والمخاوف، لم يكن الحفل مجرد مناسبة، بل كان اختبارًا لإرادتي وقوتي، فرصة للتحدي والتغلُّب على الصعوبات، وربما اكتشفت أشياء جديدة عن ذاتي.

لقد كان قراري واضحًا، "الشجاعة لم تكن ألا أخاف، بل أن أواجه الخوف نفسه".

قُدت إحدى السيارات وانطلقت نحو عنوان الحفل الغامض، في الظلام الساحر الذي اخترق الليل كنت أتجه نحو مصيري، تجاوزت الشكوك والتردد، تجاوزت جدران الوعي.

امتد الطريق أمامي بمنحدراته المتلألئة بأضواء تسللت إلى قلب الظلام، هناك بالأفق في مزرعة خارج حدود المدينة، حيث تتلاقى السماء اللامتناهية مع الأرض المنبسطة.

تساءلت في صمت:" هل أمكن لروحي الهائمة أن تستعيد شيئًا من الذاكرة المفقودة، أم أنني مجرد راكب تائه في رحلة لا نهاية لها؟".

مع كل خطوة كنت أسير فيها تسارع نبض قلبي، وشعرت بالتوتر يتسلل إلى كل جزء من جسدي، الضباب أحاط بالمزرعة مثل سراب من الأحلام المتلاشية، هناك وسط الظلام ووسط أفكاري المتناثرة، تذكرت اللحظة التي استفقت فيها من دون ذاكرة، وكيف تكسرت قطع اللغز في عقلي، وتساءلت: "هل سيكون ذلك الحفل بوابة لكشف الحقائق المدفونة في الزمان؟".

"هل سأجد هناك شيئًا يعيد لي ملامح وجهي المفقودة في ذاكرتي المشوهة؟".

ظهرت المزرعة أمامي كساحة خضراء، تسارعت ضربات قلبي مع كل تفصيلة ظهرت أمام عيني، رغم كل الجمال يكمن الغموض وراء كل زاوية.

"هل سأكتشف ماضيًا غامضًا يفسر كل ذلك الفراغ، أم ستظل ذاكرتي مهمشة في لعبة لا تنتهي؟".

مع كل خطوة كنت أتمنى أن تكون الإجابات في انتظاري، ولكن الشك تسلل كظلام التفَّ حولي، في تلك اللحظة التي سبقت الانغماس في غموض المزرعة، قلبي كان يخفق بسرعة، كما لو كان ينبض بقوة ليواكب اللحظات الفارغة في ذاكرتي.

رافق ذلك التسارع شعوري بالتوتر، فالمستقبل كان غير معروف، وشكَّل تحديًا جديدًا انتظرني... عيناي المتوترتان، التقطت لمحة عن الحفل أمامي، إذ تداخل الضباب مع أحلامي وآمالي المنكسرة، "كيف سأعبِّر عن نفسي في ذلك المكان؟".

رفعت نظري إلى الأفق، حيث السماء تحتضن تفاصيل النجوم المتلألئة...

"هل ستكون الإجابات موجودة هناك؟". في ذلك الفضاء الفسيح الذي يتناقض مع ضيق ذاكرتي، تسارع الفكر في رأسي، عشت تلك المشاعر المتناقضة بين الشوق والخوف.

"هل سيكون ذلك الحفل فرصة للإلهام واسترجاع الذكريات المفقودة، أم مجرد رحلة إلى أعماق المجهول بلا فائدة؟".

شعرت بالرغبة في البحث عن مفاتيح الفهم، وفي الوقت نفسه خشيت ما قد أكتشفه، واصلت مسيرتي محاولًا اختراق حدود الظلام ورفع الستار عن أسرار الماضي، تأملت فعاليات الحفل المنتظر، أتساءل عن اللحظات التي ستكون محورية في تغيير مسار حياتي.

قد تكون تلك المزرعة مكانًا للمفاجآت والاكتشافات، أو قد تظل مكانًا للشك والغموض.

وهكذا... استمرت رحلتي، وسط أمواج من الظلام والنور، في محاولة يائسة لفهم لغز حياتي الملتبسة.

في أعماق ذلك الظلام الذي يلفُّ فاقدي الذاكرة تتسلل المخاوف وتتناغم مع صدى الهواجس، ليس الظلام هنا فقط نقمة عابرة، بل حالة مستمرة من الشك والخوف، يمثل ذلك الوضع حقيقة صعبة وغامضة، إذ يغلف النسيان، ليس فقط الألم والهموم، بل كل زاوية من زوايا الوجود.

في تلك اللحظة التي يفقد فيها الإنسان ذاكرته، يتلاشى كل معنى وكل مشهد يمكن أن يربطه بالتاريخ، الخوف ينبثق من عدم القدرة على تذكُّر الأقرباء والمحبوبين، اللحظات السعيدة وحتى اللحظات الصعبة التي شكلت جزءًا من بنية ذواتنا.

يكمن الظلام هنا في أن كل ذاكرة تُمحى، مثل جدار من الظل، تختفي الأحداث والمشاعر والروابط بين الأشياء، الفراغ الذي يُخلّفه النسيان، ليس فقط خسارة لتفاصيل الحياة، بل تحوُّل إلى عالم لا يعرف الضوء، ليست فقط خسارة الذكريات الجميلة مؤلمة، بل هناك أيضًا عبء الحياة اليومية، نسيان تفاصيل بسيطة مثل أسماء الأشخاص، أماكن الأشياء، وحتى كيفية أداء المهام الأساسية يصبح تحديًا.

ذلك العبء يجعل الحياة تبدو وكأنها لغز لا نهائي، إذ يفتقد الفرد إلى الأمور البسيطة التي تعطي معنى لوجوده.

ما إذا كان النسيان سيظل نعمة أم لعنة، يعتمد على كيفية تشكيل ذلك النسيان للشخصية، فقد يؤدي إلى تحولات في نظرة الفرد للحياة، فقد يجد جمالًا في اللحظة الحالية ويعيش من دون أوزار الماضي، ومع ذلك فإن بعضهم قد يشعر بالفقدان والحزن المستمر، إذ يفتقدون التواصل العميق مع تفاصيل حياتهم.

وسط ذلك الظلام يبحث الفرد عن أشعة الضوء، رغبة في العثور على شيء يضيء له الطريق، قد يكون في صور قديمة، أو حتى في لحظة اتصال عابرة، ينير الفرد لحظة من زمن طويل مفقود.

هكذا يظل فاقدو الذاكرة في ذلك الظلام المستمر، ويحملون عبئًا ثقيلًا من النسيان. السؤال الذي قد يطرحه الكثيرون: هل يمكن أن يبقى النسيان نعمة عندما يلتفُّ الظلام حول كل زاوية من زوايا الحياة؟

كثيرون قد يتمنون النسيان، احترس ممَّا تتمناه، فبعض الأمنيات إذا تحققت نودُّ حينها لو أنها بقيت فقط مجرد أمنيات.

الأشخاص العاديون قد يتصورون أنهم قادرون على النسيان، لكن الحقيقة أنه لا نسيان، كل حدث أو عاطفة تمر بنا لا تختفي، بل تختبئ تحت حُطام المشاعر، تنتظر فرصة للخروج، في لحظات الغضب، ربما زلَّات اللسان أو حتى في الأحلام، تخرج الحقيقة الكامنة وراء خطوط النسيان.

لكن قصة مراد مختلفة، فهو لم يختَرْ النسيان، بل استيقظ ليجد نفسه بين أحضانه.

الفصل الثاني

ظللت أتفقد الطريق بتلك النظرات الحائرة التي أطلقتها يمينًا ويسارًا، خرجت نحو الحياة للمرة الأولى، كانت ظلمات الفقد قد أعمت بصيرتي عن البحث عن كل ما هو جميل، في تلك اللحظة بدأت رحلتي، ومع البدايات دائمًا تأتي الشكوك، كنت متوترًا، ربما خائفًا من مواجهة المدعوين في الحفل، أو ربما المضيف نفسه ما

أخاف، كل ما كنت أدركه أنني لا أتذكر شيئًا... كان التفكير الكثير يؤرقني ويُقلقني، لكني عاهدت نفسي ألا أستسلم، وأن أستمر بالبحث.

الأفكار التي امتزجت بمشاعر الخوف كانت داعمًا ألا أذهب إلى ذلك الحفل، كل تلك المشاعر والأفكار لم تعد مهمة، خالفتها، إذ كنت بالفعل أمام القصر، في حفل يوسف عز، جعلت تركيزي كله على تلك اللحظة، كانت هي كل ما أملك.

كلما اقتربت وجدت الليل أصبح أكثر ظلامًا، خارج المدينة، بدا أننا نتشارك -أنا ويوسف عز- الرغبة نفسها في الابتعاد عن ضوضاء المدينة.

بشائر الحفل ظهرت هناك بالأفق، بدأت مراسم الاحتفال، والمدعوون توافدوا إلى الداخل.

"ما هذا القصر الضخم؟!".

ظهر متربعًا على عرش المزرعة، يتوهج وسط الظلام.

فور وصولي بوابة القصر هممتُ بالنزول حيث نافورة راقصة من الذهب الخالص تتوسط المدخل، الخدم استعرضوا بأزيائهم التي كانت غاية في الفخامة والرفاهية، بمجرد أن وطئت قدمايَ الأرض انتظرني أحدهم ليرافقني إلى الداخل.

على امتداد البساط الأحمر بطول السلالم الرخامية، والقصر قد أشرق بأنواره اللامعة، لقد كان استقبالًا مهيبًا، الأبواب الضخمة انفتحت لتكشف عن قاعة الحفل، حيث سمعت صوت الموسيقى والضحك المنخرط بها.

أصابني الذهول، ما كانت مخيلتي لتصنع ولو جزءًا بسيطًا من كل ما رأيته، حاولت جاهدًا الدنو من مستوى المفاجأة، حتى لا أُظهِرَ مدى الذهول الذي حلَّ بي، بينما تدفق الضيوف إلى الداخل، تسلل الصمت الرهيب إلى الهواء حولي، كان ذلك طابعًا غامضًا على تلك الأجواء من حولي، انبثقت التحية بابتسامات على شفاه الحاضرين.

أكاد أسمع أحاديثهم بلغة ملتبسة ورموز مشفَّرة، أوصلني الخادم إلى أحد أركان الحفل، وكأنه أُعِدَّ خصيصًا لأجلي... مقعد جلدي فاخر له هيبة حاضرة، نُقشت عليه بعض التصاميم المطلية بالذهب، أمامه طاولة قصيرة.

لا مكان لي وسط تلك الجموع، ما كنت لأختار مكانًا أفضل من ذلك، كان ما يؤرقني حديث أحدهم بينما أنا لا أتذكر شيئًا!

وما أحببت أن أصرح بأني فاقدٌ الذاكرة، كنت هناك حتى أستخلص وأفهم من دون أن أفصح عن سِرِّي، كانت فرصة لاكتشاف كل شيء حولي من دون إزعاج من أحدهم، أو تهديد باقتحام ما أخفيه.

في جو الحفل الراقي تسللت الإضاءات الدافئة من الشموع والثريات الفاخرة، لامست وجوه الحاضرين، عكست الأرضيات الرخامية ذهبية اللون، تألقًا باهرًا، لكنها بدت ملطخة بظلال داكنة وكأنها شاهد على أسرار، رافقت الموسيقى الكلاسيكية خطوات الحاضرين، وتداخلت همساتهم وضجيجهم مع ألحانها، الجمع المشارك في الحفل ارتدى ثيابًا فاخرة بألوان قاتمة، المجوهرات الثمينة لمعت على أعناق النساء وأيديهن، وتلألأت الأزياء بتصميمات أنيقة.

كلما نظرت إلى ركن من أركان الحفل أصابني الفضول والرغبة للمزيد، مللت الجلوس وأردت المزيد، كان الفضول دافعًا حتى أخرج من ذلك الركن المهيب، تجولت في القاعة، كل خطوة أخطوها كانت كأنما تنقلني بين أروقة الذاكرة المفقودة، حيث تداخلت الفخامة بالغموض.

"مَن هؤلاء؟ مَن أكون؟".

في كل زاوية لمسة فنية مذهلة، سواء نقوش الأسقف أو اللوحات الفنية المُعلقة حولي، الألوان اللامعة كست جدران القاعة برقة، والثريات الفاخرة عكست بريقها على كل مكان.

التركيز على روعة القصر وتفاصيله المذهلة جعلني أبدو وكأنني في عالم مليء بالجمال والغموض المغري، تناسيت لحظات الغضب والضياع التي عانيتها قبل وصولي ذلك الحفل، كنت مستعدًّا لاستكشاف المزيد.

تحولت الهمسات الموسيقية إلى سحر عانق كل زاوية، شكَّلت لحنًا فاخرًا، خلقت حولي أجواء أسرت ذهني، وأضفت رونقًا لا يُنسى، الأضواء الناعمة أبرزت تفاصيل الفخامة، تحفة فنية، كنت مذهولًا بالحضور حقًّا، النساء يتألقن بفساتين ساحرة وتصميمات فريدة، بلمسات أبرزت أنوثتهن، أما الرجال فبدوا مثل سفراء من عالم الأناقة، بأزياء راقية مناسبة لهكذا حفل، كل شخص هناك كان يتسم بالتلقائية والسحر، كأنه أُختير بعناية ليكون جزءًا من ذلك العرض الفني.

الابتسامات والمحادثات والهمسات ملأت الهواء، وكل شخص في الحفل كان يحمل قصة وفيضًا من الغموض، كنت مسحورًا بالجمال والروعة من حولي، كانت تجربة لا مثيل لها، الضحك والهمس اختلطا حولي بطريقة تثير الفضول.

- "ما هذا الحضور الفاخر؟".
- "ما علاقتي بمثل ذلك العالم المترف؟".
- "هل يوجد من يعاني وسط كل تلك الفخامة والترف؟ أم كنت وحيدًا وسط ذلك العالم المترف؟".

التقطتُّ تلك الأنظار وسط بحر الجمال والفخامة، أسرتني روح التأمل تلك، كأني كنت أحاول استرجاع ذاكرتي الضائعة من خلال الانغماس في تلك اللحظات الساحرة، وكأن شيئًا ما عاد مجددًا بداخلي، في لحظة غامضة جميلة تسللت إلى أذنيَّ موسيقى البيانو كلحن فاتن، تلون الصوت بالرفاهية والفخامة، تناغمًا مع أجواء القاعة الفاخرة، وكأنما النغمات تروي لي قصة خفيَّة وعميقة.

اقتربت منه متجاوزًا حيرتي، واقفًا أمامه مترددًا وغارقًا في الفضول الذي بداخلي، من دون تفكير كثير اقتربت أكثر مُلقيًا نظرة فاحصة، لم أدرك الأمر، ولكن أطراف أصابعي داعبت مفاتيحه وكأن شيئًا بداخلي تحرك، بدأت أصابعي بالعزف، النغمات تدفقت من بينها برشاقة وجمال، وكأنها تراقصت بإيقاع حياة جديدة داخلي، نسيت كل شيء حولي، انطبق جفناي على بعضهما، وانفصلت عن كل ما هو حولي، بدأت أستمع إلى لغة تختبئ داخلي منذ الأزل.

لم أكن أدرك أني قادر على ذلك العزف الساحر، شيء ما أو شخص ما بداخلي يشعر بالسعادة، الدهشة ملأت قلبي، عزفت موسيقى غاية في الجمال والظلام، أصابعي تلاعبت بالمفاتيح، نسجت موسيقى أسرت القلب وأحاطته بالسحر والغموض.

كانت الألحان تعكس جمالًا مظلمًا، استكشف أعماق الروح والمشاعر المكبوتة، النغمات تراقصت كظلال تروي حكايات مفعمة بالغموض والإثارة، كل مفتاح عزف كأنه فتح بابًا جديدًا إلى عالم غير معروف، حيث الألم والجمال يلتقيان بسحر طاقة انبعثت منها قوة غامضة، أصبحت وسيلة للتعبير عن الجمال والأحاسيس العميقة بداخلي.

في تلك اللحظات اخترقتُ حدود الظلام والجمال، عازفًا على أوتار الألم والأمل في آنٍ واحد، كلما امتدت النغمات ازددت اندماجًا في ذلك العالم حولي.

بعد أن عزفت وقد استرقت من ذلك الحفل لحظات لنفسي، غمر الصمت القاعة الفاخرة، ووجوه الحاضرين نحوي عبَّرت عن إعجاب ودهشة لا توصف، كانت لحظة فريدة... "لكن ماذا فعلت؟!".

لقد كانت روح التأمل والاندفاع تسيطر عليَّ، جعلتني أنسى، أنسى الحيطة والحذر، نظرت حولي بابتسامة خافتة قاصرًا ناظري عن أي أحد، عدت مجددًا إلى الواقع الذي غفلت عنه.

فجأة أظلمت قاعة الحفل، وكأنما ظهر من ضباب الليل الكثيف ذلك الرجل، والضوء تلألأ حوله، ظهر يوسف عز، توقفت الأنفس وتجمَّد الزمان، ظهر أمام الحضور بابتسامة غامضة على شفتيه، كان يرتدي ثوبًا أنيقًا يعكس فخامة المكان، لكن في نظراته كانت شعلة من ظلام ألقت بظلالها على الجميع، شيء ما كان مألوفًا في عينيه،
كما لو كانتا تخفيان سرًا يتوارى خلف ابتسامته الراقية.

- "مرحبًا بكم".

هكذا قالها بصوت رخيم مرتفع، لكن الغموض التفَّ حول حديثه، وكانت أنظاره تجول بين الحضور، كأنه يفهم أفكارهم ويقرأ أعماقهم.

تأملت وجهه محاولًا فك رموز ذلك الرجل الغامض..." يخفي شيئًا ما".

أحسست بالفزع يسري في عروقي، كأن قلبي تراقص على نغمات المجهول، اللحظة كانت كمشهد من فيلم مشوق، حين تلتقي الفخامة بالغموض، انتظرت الكشف عن اللغز كأني أعيش في عالم موازٍ، حيث تلتقي الخيوط ببعضها بعضًا، والمضيف يتربع على عرش الحفل.

"هل هو ملاذ الإجابات؟".

فكرت بهمس في أعماق روحي، تناثرت الأفكار في تلك اللحظة المشحونة بالغموض، فور رؤيتي يوسف عز أدركت أن ذلك الحفل ليس مجرد احتفال بالفخامة وحسب، بل هو مسرح لأحداث أكثر تعقيدًا وغموضًا، ذاكرتي المفقودة حاولت الكشف عن ستار ذلك الغموض الذي اختبأ في أغوار الفخامة.

"لقد حان وقت اكتشاف هذا الحفل".

وجدت نفسي غارقًا في بحر من التساؤلات والاستفسارات، بينما تحدث يوسف عز بكلماته الأنيقة، كل كلمة تسللت إلى أذنيَّ كصفعة خفيَّة، تفتح أبوابًا جديدة إلى الغموض، وازدادت رغبتي في اكتشاف الحقيقة...

"هل تكمن إجابات أسراري في ذلك الرجل؟".

أتساءل وأنا أراقب كل حركة صدرت منه... "هل هو السر الذي أبحث عنه؟".

كنت في دهشة كاملة أمام ذلك الشخص الذي يتربع على عرش الفخامة والغموض، بدا على وجهي الإعجاب بروعة وجود يوسف عز، لكن في الوقت نفسه تداخل إعجابي ذلك بالحذر، تساءلت بخفوت وكلمات يوسف عز تناغمت مع صدى أفكاري، "أيمكنني الاعتماد عليه؟".

"هل لديه الإجابات عن أسرار حياتي المفقودة؟".

ربما... فهو من دعاني إلى ذلك الحفل، والاهتمام الذي حظيت به عند دخولي يدل بلا شك على أنه تجمعنا صداقة وسابق معرفة من نوع ما، ذلك ما اعتقدته، تلك الأفكار كانت تظهر وتتلاشى في ذهني، كنت أراقب ذلك الشخص،

كل حركاته ونظراته بدت مثل لغز لا يمكنني فك شفرته، وعيناه تنطلقان في تحقيق دقيق لكل زاوية وكل تفصيلة في المكان، ذلك الرجل لديه سلطة غير مرئية ألقى بظلالها على المحيط بأسره.

في تلك اللحظة المشئومة والمليئة بالغموض والإثارة تلاقت أعيننا، انقلبت الأجواء الجميلة والفخمة إلى مشهد من الرعب الخفي، كما لو أن شيئًا مظلمًا تسلل إلى أعماقي.

"لماذا؟".

لماذا رأيت نظرات الدهشة والرهبة في عيني يوسف عز وهما تطالعانني؟ تملكتني الصدمة، لم أكن لأتوقع تلك النظرات من شخص مثل يوسف عز، كنت مذهولًا وفزعًا أمام تلك النظرات، اكتشفت شيئًا غريبًا وغير متوقع، زادت اللحظات توترًا، في تلك اللحظة بدأ الحفل يضجُّ بنوع من الغموض والريبة، كانت لحظات قصيرة لكنها حملت الكثير.

عدت مجددًا لأجواء الحفل، لكن بعد أن ابتعدت قليلًا عن لحظات الانبهار والدهشة، أردت العودة لمراد توفيق الذي عهدت فيه الملاحظة والدقة، كنت هناك حتى أحاول الحصول على أكبر قدر من المعلومات، ما زلت فاقدًا ذاكرتي، كان ذلك هدف ذهابي للحفل.

"لم أكن أدرك تلك التفاصيل المهمة".

في ظل الدهشة التي كانت تعوقني عن الملاحظة، كنت خائفًا أن يحاصرني الحاضرون بأسئلتهم أو نقاشاتهم التي قد تفضح ما أعانيه، لكنهم -بلا استثناء- تجنبوني، حاولوا بقدر كبير الابتعاد عن الاحتكاك بي، "لكن لماذا؟".

بعد أن انتبهت لما دار حولي، من دون التأثر بالجمال والفخامة اللذين أحاطا بي من كل اتجاه، في تلك اللحظة بدت النظرات الخائفة والمرعبة تتسلل إليَّ من بين الحشود، لكنها لم تكن ملحوظة من قبل، زادت تلك التفاصيل الأجواء رهبةً وغموضًا.

في تلك اللحظات بدأت أدرك أنني لم أشاهد حفلًا فحسب، بل كنت أمتلك مكانة مهمة بين هؤلاء الأثرياء والنبلاء، أصحاب المراكز السيادية الذين احتشدوا في قصر يوسف عز، كنت جزءًا من تلك الطبقة، لست مجرد مدعوٍ أو مراقِب.

في تلك الأمسية بدأت بملاحظة تحركات غريبة من الضيوف، بعضهم يغادر الصالة نحو أماكن أخرى في القصر، كان هناك جانب خفيٌّ ومظلم في ذلك الجمع، وبعضهم يتجه نحوه، الموسيقى الجميلة بدأت بالاختلاط بألحان مظلمة، بدأ باب جديد يُفتح أمامي لكشف الأسرار الخفية لذلك القصر.

في اللحظات التي بدأت في إدراك الواقع من حولي اقترب أحدهم من خلفي بخطوات هادئة، كانت غير مسموعة وغير ملحوظة:

- "سيدي، هناك ما يزعجك؟".

التفتُّ لأتفاجأ... يوسف عز بنفسه!

من هول الصدمة لم أستطع الإجابة، اكتفيت بالصمت والنظر إليه محاولًا أن أتمالك نفسي، فأنا لا أريد أن يعرف يوسف عز أو غيره ما أصابني.

الصمت الذي خيَّم عليَّ كان مصدر تحدٍ وقوة، نظراتي الثابتة والهادئة كانت تعبيرًا عن قوة داخلية في مواجهة النفوذ والسلطة اللذين يغلفان يوسف عز، فأنا قد واجهت الظلام من قبل في لحظات استيقاظي الأولى.

"نظراته تلك غريبة، مراد توفيق ذلك اللعين يحاول التلاعب بي أم ماذا؟".

هذا الرجل خطير كعادته، لكن هناك أمرًا غريبًا لم أعتده من قبل، طالما كان منعزلًا، لا يتجاوب مع أحد، اليوم هو شخص آخر، نظراته، عزفه على البيانو، كل شيء اليوم غريب، لكن عدم رده الآن يرغمني على الصمت... إنه مراد توفيق.

دائمًا ما كان هذا الرجل يبثُّ الرعب بداخلي، سأكتفي بالصمت، وسأرى ما يخفية مراد توفيق، بالتأكيد سيصرح به في الوقت المناسب.

أشرت له: "تفضل، موعد الحفل الحقيقي حان، والجميع بانتظارك".

تقدمته وهو يتبعني في هدوء وصمت غريب!

"ما الذي يتحدث عنه؟ أي حفل غير هذا؟".

بدأ الخوف وبدأت الرهبة بالاجتماع معًا وسط ذلك الظلام الذي عاد مجددًا، ليتشكل أمامي أكبر لغز كنت على موعد معه... لم أكن أتخيل ذلك الوجه من شخصيتي، الذاكرة المفقودة لم تنبهني، مَن أنت يا مراد حقًّا؟!

بخطوات ثابتة تبعت خطوات يوسف عز محاولًا تدارك أعصابي المهتزة.

****

"لم يكن وجودي الليلة مجرد ظهور عادي، فالأحداث أصبحت مفاجئة ومليئة بالتطورات التي غيَّرت مجرى الليلة تماما"

"ما آخر أخبار المشروع، هل شارف على الانتهاء أم ماذا؟ المجلس يسألني بشكل مستمر، ولم أحصل منك على إجابات واضحة من فترة".

كان يتحدث عن شيء ما، مشروع سِرِّي ربما، لكن لا بأس... بهدوء وثبات أجبته:

"لا شيء جديد، حتمًا سأوافيك حين وجوده".

"حسنًا، لا مشكلة، أنت جاهز؟".

لم أرد، فقط حركت رأسي بأن يتابع الطريق... "عن أي مشروع يتحدث؟ أي مجلس؟ الكثير من التساؤلات؟".

"يوسف عز لديه الكثير، لكن عليَّ أن أكون حذرًا، لا أريد أن يكشف سري الآن، سأحاول المماطلة قدر الإمكان قبل أن أبوح له بما حدث".

بينما انحدرنا نزولًا لأسفل القصر كان الدرج المظلم يحمل في طياته الكثير من الغموض والخفايا! كلما تقدمنا أصبح الجو أكثر كآبة، وتعمَّق الفرق بين السماء والجحيم.

الزمان مرَّ كأننا نعيش في أبعد نقطة عن السلام، آفاق الظلام أصبحت أكثر وضوحًا، الابتسامات الكاذبة، تلك التي تسابقت على وجوه الحاضرين، همساتهم وضحكاتهم الزائفة المشبوهة، كانت تحمل في طياتها الكثير، لكن أنا لم أكن حاضرًا، في قاعة الظلمة تحت القصر الفخم انكشفت أبواب القاعة السرية، قاعة جدرانها من الحجر البارد، رقصت الشموع المتقدة في إيقاع شيطاني، وإضاءة تتسلل من فوانيس عتيقة تتدلى من السقف، انكشفت رموز ونقوش تحكي قصصًا لا تحمل إلا السوء.

الأرضية البلاطية الرطبة، آثار أقدام مغطاة بالظلام والدماء، ارتفعت رائحة اللهب، والدخان المتصاعد ملأ الهواء، تناغم مريب تسلل إليَّ، رعب تسلل إلى قلبي، كان عليَّ اقتحام المجهول، كنت أبحث عن هوية ضائعة وماضٍ أصبح أكثر غموضًا.

كلما تقدمت خطوة ظهرت حكاية مظلمة تقصُّ لحظات من الجنون والعنف، وسط تلك القاعة المظلمة بدا المكان كأنه يعيش وينبض بالحياة الشريرة، في ذلك الفضاء شعرت بالشر حاضرًا بكل أشكاله المرعبة.

يوسف عز يقف وسط القاعة وبصوت مظلم قوي قال كلماته :

- "الآن نبدأ...

اليوم هو الأول للأعضاء الجدد... حاضرون ليوثقوا لحظات جديدة، تُقام المراسم في حضرة الشيطان نفسه".

خاطبني بصوت هادئ وإجلال :

- "أنت جاهز سيد مراد لإطلاق عنان الجحيم على هذه الأرض؟".

أشرت له أن يكمل، لم أستطع الرد حينها، لم أكن أعرف حقًّا ما الذي يجب عليَّ فعله، كانت كلماته ذات وقع غريب... "شيطان! أيقصدني؟".

كلماته سحرتني، لقد كان لسان حالي عاجزًا عن الرد، أردت فهم ما الذي يحدث هناك،

كيف تحول كل شيء حولي إلى هذا؟

وجوه الحاضرين بالقاعة ظهرت مغطاة بأقنعة سوداء، عكست وحشية ما كانوا على وشك تنفيذه، مشاهدة يوسف عز يرتدي زيًّا حالكًا، عكس جوهر الشر والظلام، يحمل عبورًا إلى عالم موازٍ، حيث يندمج الإنسان بالشيطان والظلام.

بدأت ممارسات الشيطان، اختلطت أصوات صياحهم مع أنغام الموسيقى المرعبة في وسط القاعة، اجتمعوا حاملين شموعهم السوداء، راقبتهم بحذر والصدمة تعتريني! تلبَّستني في جمود وصمت.

فتاة مقيدة ارتسم الفزع على وجهها، والدموع تلألأت في عينيها البريئتين، اجتمعوا حولها، أصواتهم تتعالى تحية للظلام والدماء في مراسم سوداء، موت تلك البريئة، سيقدمونها قربانًا للشيطان نفسه، معلنين بذلك ميثاق الدم والظلام.

وقفت مستنشقًا أجواء الرعب التي خيَّمت على الهواء نفسه، كان قلبي ينبض بسرعة، الخوف والفزع اختلطا بأنفاسي المتقطعة، لم أكن قادرًا على إدراك ذلك الموقف، كيف يمكن للبشر أن يصلوا إلى ذلك الحد من الجنون والشر؟

بداخلي تساءلت: "أهذا هو العالم الذي أنتمي إليه حقًّا؟".

"أهو الجحيم المستتر خلف وجوه الأبرياء!".

"كيف لي أن أكون جزءًا من كل ذلك؟".

شعرت بجمود يَسري في عظامي، عالم مظلم ما كنت لأتصوَّره في كوابيسي، هُوَّة سوداء ابتلعتني، ما هذا الماضي اللعين الذي بحثت جاهدًا عنه؟

في تلك اللحظات تقدم يوسف عز وسط الحشود متجهًا نحوي، كان يحمل وسادة بين يديه، وضع فوقها سكينًا في مشهد مرعب وعيون مظلمة، ثم قال بصوت مظلم ومدوٍّ:

- "ها هي سكين الظلام، سكينك سيد مراد".

كان يقولها بنبرة السحر والخيال.

"التقطها بحذر، فقد شُحذت بيد الشيطان نفسه".

نظرت نحوها، سكين لامعة، التقطت بريق اللهب من أضواء الشموع، مُسنَّنة كأنها حملت بصمات الشيطان من الجحيم نفسه، شعرت بالفزع يَسري في عروقي، رفعت بصري بنظرة عابرة وسط تلك اللحظات المظلمة... بكاء الفتاة، وجه يوسف المبتهج، أصوات خُدام الظلام، كنت جزءًا من ذلك العالم الملتوي، الصدمة سيطرت عليَّ، أستفيق من نسيان لأرى كابوسًا أسودَ أحاط بي.

شعرت بالخيبة والغموض حول ماضٍ لم أكن أعلم عنه شيئًا، كيف ارتبطت بذلك العالم؟

نبضات قلبي تسارعت بلا توقف، كطبول حرب ضاربة، ما هذا الماضي اللعين الذي يُعرَض على واقع أليم أنا مُرغم على عيشه؟!

****

في تلك اللحظات السوداء كان مراد يكتشف ماضيًا تحول إلى عاصفة غامضة في عقله، في قلب ذلك الصراع تلاطمت مشاعره كأمواج هائجة جمعت الخوف والفضول، تلامست أوتار الغموض والكشف عن الحقيقة.

كانت لحظات حرجة يعيشها مراد، إذ يتداخل الغموض والسكون، الحيرة والوضوح، ما يجعل اللحظات قاسية، لحظات ثقيلة، كأن الزمن قد تجمَّد والهواء توقف عن الحركة حوله، الزمان قد وصل ذروة الجمود، ذلك السكون الرهيب، تطرق صدمة حقيقية أبواب قلبه متسللة إلى أعماق روحه المضطربة، الخوف التفَّ حوله والظلام لا ينتهي، مشاعر الصدمة مزَّقت روحه المنهكة، في تلك اللحظة بدت الحقيقة.

حقيقة مراد توفيق، وحش لا يمكن ترويضه، انبعث منه شعور العجز والتوتر، وجد نفسه على حافة اللاوعي، كأن ذلك العالم المظلم يتحكم به، تدفق الفهم إليه ببطء إلى أعماق الإدراك، وكلما توغل ازدادت حيرته وصدمته.

وكأنه تعلم لغة لم يكن ليتحدثها قَط، لغة الظلام، التي بدت أنها مكَّنت الشيطان من السيطرة على أجزاء من حياته.

****

لحظات من الصمت والهدوء سكنت جسدي وعقلي، كان صمتًا خيَّم على كل شيء، كل ما استطعت فعله هو النظر إليهم، هؤلاء ليسوا بشرًا، هم أبشع من أن يوصفوا بذلك، لم أكن أتخيل ما الذي يريدون مني فعله بتلك السكين، تلك اللحظات بدأت تثير القلق في الحاضرين حولي، وعلى رأسهم يوسف عز.

"لماذا السكون؟ لم أعتد تلك التصرفات من مراد".

"صدى اسمه فقط أرعب الكثيرين، لمَ ذلك الصمت؟".

أمسك بالسكين، كان مترددًا!

هذا هو مراد توفيق، تلك النظرة في عينيه تدبُّ الرعب حقًّا.

الآن أرحنا، اكسر صمت هذه اللحظات يا مراد.

كانت تلك اللحظة غريبة، ابتسامته كانت دائمًا حاضرة.

لاحظته كأنه يُحدث نفسه، يتمتم بكلمات لا أستطيع سماعها، نظراته الحادة والمستنكرة التي يطلقها، شيء ما لا يعجبه!

لكن لم أغير في الطقوس شيئًا، ربما لم تعجبه الفتاة أو ربما أحد الحاضرين الجدد، ما الذي يدور برأسك يا مراد؟

أَنْهِ هذه اللحظات اللعينة!

بدأت أصوات التعجُّب تعلو خلفي:

- "لمَ ذلك التردد والصمت؟ افعل شيئًا!".
- "سيد مراد!".
- "سيدي، هناك شيء؟".

لم آخذ ميراث الدم والظلام، لم أستسلم لذلك الإرث اللعين، كان عليَّ الخروج من هناك،

وجهَّتها أمام الحاضرين، أمام يوسف عز نفسه، صرخت بعد صمت: "لن أكون جزءًا من هذا الفساد، لن أسلم نفسي للشيطان".

كانت تلك هي الكلمات التي صرخت بها وأنا ألوِّح بسكين الظلام تهديدًا ورهبة، رغم برودة القاعة لكن قطرات العرق كانت تخرج من جبيني كجرح ينزف، سمعت أصواتهم تعلو من حولي، بعضهم يصرخ ويبكي، وبعضهم الآخر كان غاضبًا، اتهموني بالخيانة، بعضهم بدأ بالاقتراب مني، ورغم نواياهم التي أضحت ظاهرة، فإن وجوههم كانت تُظهر الخوف والحذر، كأنها مُقدمة على مواجهة وحش ضارم!

كان ذلك سببًا في نجاحي بالهرب، أقسمت أني سأطلقها على من يحاول الاقتراب (السكين أقصد)، أوجهها مُلوحًا ومهددًا.

مجددًا أرى نظراتهم التي ملأها الفزع والدهشة... "سأخرج من هنا حتى لو كان أحدكم الثمن".

"مُرهُم بالابتعاد الآن، تفهمني يوسف؟ الآن".

كل ما فكرت به هو الهرب من ذلك الجحيم، الخروج من هناك، سمعت صياحهم يعلو ويعلو، حاولت في تلك اللحظات أن أتمالك نفسي وأن أكون حذرًا، هؤلاء الأشخاص قَتَلة بلا رحمة، لو أتيحت لهم فرصة سينتهي كل شيء.

انسحبت للخلف خطوة تليها أخرى، مودعًا ذلك الكابوس المزعج، ملوحًا بحدِّ سكينهم اللعين، خطواتي حذرة، وأسترق بعض النظرات خلفي، حتى لا يباغتني أحدهم، لم يتوقع أيهم أن تكون المفاجأة من الداخل، ولم يتوقع أحد أن أكون أنا المفاجأة، كان الأمر جليًّا وواضحًا في أعينهم، وكان أكثر وضوحًا على وجه يوسف عز نفسه.

لا أحد، لا أحد كان يتخيل ما أقوم به الآن، تلك المفاجأة ساعدتني كثيرًا، كان يجب أن أسرع فور صعودي للأعلى، كان عليَّ إرباكهم أكثر وأكثر حتى أحظى بفرصة للخروج من هناك، أسقطت الأشياء من حولي، نوبة من الفزع والدهشة أصابتهم، أمسكت بإحدى شموعهم المتقدة، بعض الستائر المشتعلة لن تسبب الضرر، لكنها ستعطيني الفرصة بالتأكيد للنجاة من هؤلاء الملاعين المجانين، كان هذا ما فعلته.

أصيب الجميع بالفزع والجميع الآن يحاول الهرب وأنا وسط كل ذلك الفزع أتوارى عن أنظارهم، تمكنت من الخروج من القصر، واتجهت مسرعًا نحو الجراج بمدخل القصر حيث السيارات، في سرعة قدت إحداها واتجهت فورًا نحو المخرج، الفوضى التي سببتها في تلك الليلة جعلت الهروب أمرًا يمكن تنفيذه.

لحظات الرعب التي رأيتها حولي والليلة المظلمة الهادئة انقلبت إلى صياح وصراخ، ألسنة اللهب المتصاعدة والدخان أخفيا النجوم من سماء تلك الليلة، استطعت الخروج من مزرعة الظلام تلك، لم يكن لديهم الفرصة لملاحقتي، تأكدت من ذلك، لم أرد أن تستمر الدراما، كان ما رأيته في تلك الليلة كافيًا.

عقلي المسكين المضطرب امتلأ بالأفكار والتساؤلات، كان رأسي يؤلمني ويداي يرتعشان من هول ما عانيته تلك الليلة، هذا الماضي المظلم الملطخ بالدماء، فقدت سكين يوسف وأنا أحاول الهرب، كان عليَّ العودة بسرعة للفيلا، وجمع كل أشيائي والهرب فورًا، لم تعد الفيلا مكانًا آمنًا للبقاء، سرقت اللحظات، كان عليَّ أن أسرع، ذلك أول مكان سيبحث فيه عني يوسف عز وأتباع الظلام، أي مكان بعيد عن هؤلاء، كانت تلك الضرورة الأعقل والأصلح حينها.

****

في تلك اللحظات يترنح مراد بين ماضيه المفقود وحاضره المخيف، وهو يستعيد الأمل أن يجد إجابات عن ألغاز حياته واستعادة هويته، حتى يستطيع التغلب على هذا الحاضر الذي وجد نفسه محاطًا به.

الغضب الذي اعتراه لا يوصف، لم يكن يبحث عن مزيد من الظلام والغموض، أضف إلى ذلك أنه ينتمي إلى مجموعة باعت نفسها للشيطان، بتلك الممارسات الدموية والسوداء، بل هو أهم أعضائها، فقد كان الحفل أسفل القصر يُقام على شرفه!

اللحظات الأخيرة التي عاناها مراد كانت أكثر ظلامًا وألمًا من لحظات الفقد التي عاناها عند استيقاظه فاقدًا ذاته، لم يكن يدرك أن ما هو على وشك رؤيته هو الضياع نفسه لتلك الروح المنهكة والمفقودة.

صرخات الفتاة وتوسلها لا يفارقان ذهنه، وهو يتساءل عن مصيرها.

الفصل الثالث

كنت أقود بسرعة وتهور، أردت العودة قبل أن يلاحقني أتباع الظلام، لولا أغراضي التي تركتها خلفي بالفيلا لما عُدت هناك مجددًا.

فور وصولي الفيلا كان أول ما خطر ببالي إحضار كل شيء أستطيع استخدامه، وبحاجة إليه، جمعت كل شيء في حقيبة، بدَّلت ملابسي... إلى أين أتجه الآن؟

كان يجب أن أذهب إلى مكان آمن حتى أستطيع الحصول على الهدوء، ما رأيته تلك الليلة مظلم وأليم جدًّا، لم أستطع تصديق تلك الأحداث، خوف شديد تسلل إليَّ، أو ربما الخوف نفسه تجسَّد بي.

****

اعتقدت أنه من الأفضل أن أتجه إلى وسط المدينة، في قلب ضجيجها قد أستطيع الحصول على بعض الهدوء والتفكير جيدًا، انطلقت بالسيارة إلى أن وصلت إلى أقرب محطة لقطار الأنفاق، تلك الوسيلة كانت أفضل في التنقُّل، دخلت إلى شباك التذاكر مخاطبًا الموظف:

"تذكرة إلى وسط المدينة إذا سمحت".

وقفت أمام العربة، دخلت وجلست في أول مقعد فارغ وجدته، أخيرًا بعض اللحظات من دون حركة، الليلة كانت استثنائية، لم أستطع حقًّا التفكير في أي شيء غير ما رأيته... "ما ذلك الجنون؟ لماذا مراد؟ لماذا أيها الغبي قد ترغب أن تكون جزءًا من ذلك الظلام؟".

لم أستطع التفكير، عقلي كان معطلًا من هول ما مررت به، في ظل الأنوار الساطعة والضجيج المحيط بي والصوت المزعج لحركة القطارات فوق القضبان، شعرت بالضياع غير مبالٍ بأي شيء حولي.

فجأة أحسست بالخطر، الخوف نفسه الذي انتابني في أثناء الحفل، الرهبة والقلق نفسهما.

كل تلك الإثارة... "ما تلك الليلة الملعونة؟! أعتقد أنه الحظ السيئ".

بدأت في الانتباه حولي، ألاحظ الركاب وأتفحصهم، كان الخوف دافعًا لفعل أشياء غريبة، ذلك الشخص يبدو غريبًا، معطف أسود وقبعة سوداء، "أنت لا تنتمي إلى هذا المكان".

كنت صائبًا، كان عليَّ التأكد أن ذلك الشخص الغريب يلاحقني، لم أكن أعرف من يكون، هل هو أحد أتباع يوسف عز؟

"كيف استطاعوا معرفة مكاني؟".

الزحام في العربة جعل من الصعب تحديد هويته، كان عليَّ اتخاذ قرارات سريعة، لم أكن على استعداد أن يقبض عليَّ أتباع الظلام، هل أستمر أم أُغيِّر اتجاهي؟ كيف أخرج من ذلك الموقف؟ كان يجب أن أتخلص منه في أسرع وقت ممكن.

مع اقتراب المحطة التالية وقفت أمام باب العربة مستعدًّا للنزول، وصلت المحطة، أوهمت ذلك الشخص أني سأنزل في تلك المحطة، الركاب غادروا فور فتح باب العربة، بينما انحنيت للأسفل، الركاب غادروا من حولي بمجرد أن أغلق الباب، تجنبتهم بدهاء وسرعة ولم أخرج من العربة.

نجحت الخطة، كان يقف بالخارج أمام العربة، شاهد العربة في أثناء مغادرتها، وقع بالفخ الذي نُصب له، الأمور أصبحت أكثر هدوءًا، فقد تخلصت من ذلك الشخص، لم يكن إحساسًا كاملًا بالأمان، كنت مراقَبًا، وأتباع يوسف يلاحقونني، وصلت إلى محطة وسط المدينة، وخرجت وسط الجموع وأنا حذر، لم أرد أن ألفت الأنظار حولي.

الأفضل كان أن أجد مكانًا أستطيع فيه الحصول على بعض الهدوء ليمكنني التفكير، سآخذ غرفة في أحد الفنادق، تفقدت بعضها، لم أشأ النزول بفندق فخم أو معروف، أردت أحد الفنادق البسيطة والمختبئة في الشوارع المتفرعة، حتى يكون ملجأ لي بعيدًا عن أعين الظلام.

في بهو الفندق الذي وصلت إليه، أثاث بسيطة، مروحة معلقة في السقف تُصدر ضجيجًا، وموسيقى مملة في الخلفية، وبعض الكراسي ببطانة مهترئة، كان ذلك المكان مناسبًا للاختفاء وإعادة ترتيب الأفكار.

موظف الاستقبال رمقني بنظراته المستنكرة من الأسفل للأعلى، وكأنه يُقيِّمني، كان يبدو متدنيًا بشكل ما، اتجهت نحوه:

"إذا سمحت أريد حجز غرفة".

- كانت إجابته:
- "كم ليلة؟ تريدها بمفردك أم مشتركة؟ الدفع مسبق هنا".

لم أجبه، فقط أخرجت المال وبدأت في عَدِّه أمامه، لم يكن يتوقع أني أملك المال، اختلفت طريقة تعامله فور رؤيته الأموال، اختار أحد المفاتيح المعلقة خلفه، التفت وظهرت أسنانه الصفراء تكشف عن ابتسامة مصطنعة، أعطاني المفتاح وعلَّق: "تحت أمرك، نصيحة لا تطلب وجبة العشاء، لن يعجبك طعام وردية المساء".

ابتسمت، لم أكن أدرك أن المال يصنع المعجزات، الرجل أمكنه الابتسام فقط لمجرد رؤيته له، لم يسأل عن بطاقة الهوية أو أي شيء آخر، فقط كان يطمع في بعض تلك الأوراق الحمراء.

مال كنت جمعته قبل مغادرتي الفيلا، احتجت إليه بالتأكيد، المال الذي تركته للاستقبال كان كفيلًا بألا أحتاج هويتي لحجز الغرفة، ذلك كل ما كان يهمُّ، كان عليَّ الحذر والحرص ألا أترك أثرًا خلفي، حتى أكتشف الحقيقة، لا أريد أن أقع بين أيدي تلك الجماعة اللعينة، أيدي الشيطان يوسف عز.

صعدت الدرج بخطوات منهكة وأنفاس طويلة متقطعة، كانت ليلة طويلة ومليئة بالأحداث المظلمة، أخيرًا أغلقت باب غرفتي.

غرقت في هدوء في تلك الغرفة، طاقتي انهارت واستسلمت للإرهاق، لكن اللحظات التي عشتها خلال الحفل لم تفارق ذهني، لم أستطيع النوم، مشاهد الرعب تلك، ما الذي صنعته؟

كيف يمكنني أن أكون جزءًا من ذلك الجمع المظلم؟

استلقيت على السرير، أفكر في كل ما حدث وما يجب عليَّ فعله، الشكوك والمخاوف ملأت عقلي، منعتني من التفكير، لحظات من السكون ذلك كل ما استطعت الحصول عليه، لم أستطع النوم، تفحصت الحقيبة وبحثت في الأشياء التي جمعتها لعلَّها تدلني على أي شيء يساعدني، الصور مجددًا...

من هؤلاء؟ لم أعرف أحدًا منهم، ملامحهم لم تنبهني عن أي شيء، لا شيء يُذكّرني أو يحثُّ ذاكرتي الضائعة على العودة.

عدت لأتفقد الهاتف، لم يتصل أحد، "أغلقه ربما؟ أم أدعه لربما تواصل معي أحدهم؟".

لم أجد أي شيء يساعدني، حتى إنني جربت الاتصال مجددًا برقم الحكيم كما وجدته، لكن من دون فائدة، الرقم مغلق أو خارج نطاق الخدمة، الصداع لم يفارق رأسي إلا لحظات قليلة ثم عاد مجددًا، شعرت بالضياع والحيرة يلازمانني منذ أن استيقظت.

أين عائلتي؟ أين أفراد أسرتي؟

هل هم في خطر الآن بسبب ما فعلت؟

كان عليَّ إيجادهم وحمايتهم من يوسف عز، لكن أين؟

أنا لا أعرف إذا كانوا موجودين حتى، وإذا كانوا موجودين فأين أجدهم؟

كل تلك الأفكار ملأت رأسي وأكثر... ما العمل؟ لا أعرف.

الوحدة التي شعرت بها لا توصف، شعرت بالحاجة إلى أحد ما أستطيع الوثوق به ليساعدني، ماضٍ يثير القلق والخوف، ماضٍ مظلم كذاكرتي الضائعة، لست قادرًا على استرجاع أي شيء.

أردت أن أنتمي لأحدهم، لكن لم أكن أتخيل أن أنتمي لمثل تلك الجماعة، كان ذلك ما أردت الشعور به، لكن ليس كذلك، حزن عميق اجتاحني، لم أعلم أي شيء عن ماضٍ مليء بالظلام، لم أعلم كيف وصلت إلى تلك الحالة؟ ما الذي دفعني؟

فراغ بداخلي سبَّبه الفقد، فراغ لم يُشبعه سوى الفزع الذي رأيته في تلك الليلة، لم أكن قادرًا على التعامل مع ذلك الحاضر، هل سأستطيع خوض مستقبله؟ لم أعلم حقًّا.

طلبت قهوتي، احتسيتها وأنا أقف أمام شرفة الغرفة أسترق لحظات الصباح الذي أشرق على المدينة التي استفاقت من سكون الليل... "هل لديَّ فرصة لبداية جديدة بعيدًا عن كل ذلك الظلام؟".

لم أعلم إذا كنت قادرًا على فعل ذلك، وإذا أردت فهل سيتركني ذلك الماضي اللعين وشأني؟

وقع نظري على الطاولة بالغرفة، إذ فرشتها بكل ما أخذته من أوراق وصور ومقتنيات من الفيلا، وقع نظري على صورة قديمة لشاب توسط رجلًا وامرأة كانوا سعداء، انبعثت من نظراتهم الفرحة، انغمست في تفاصيل الصورة، أشعرتني بالحنين إلى مثل تلك اللحظات... لماذا أحتفظ بتلك الصورة؟

تفقدتها بدقة ربما تذكرت شيئًا، التقطتها من فوق الطاولة برفق وحنين، تفاجأت أن عليها كتابة في الخلف، لم ألحظها قبل ذلك...

(يومًا ما سأعود لبيت الحبايب)

١٥ حارة الديوان وسط المدينة

بيت أحمد بسيوني

(مراد توفيق)

كان العنوان قريبًا من الفندق، أعتقد أن ذلك كان عاملًا محفزًا جدًّا بأن أكمل البحث، ما المشكلة أن ألقي نظرة من بعيد، لربما وجدت ما يساعدني.

لكن مَن أحمد؟ لماذا دوَّنت اسمي خلف الصورة؟ الكتابات كانت بخطي، فهل من المعقول أنها أسرتي، لكن من أحمد؟

يومًا ما سأعود!

شعرت بشيء ما دعاني للبحث خلف ذلك السر، هل كان ذلك وعدًا قد قطعته ولا أتذكر؟ أم أنها إشارة لشيء ما؟ هل لتلك الصورة علاقة بحياتي السابقة؟ إذن لماذا احتفظت بها؟

ربما كان مفتاحًا لاستعادة كل شيء مجددًا، هل أحمد هو الشاب أم الرجل بالصورة؟ ما علاقتي بهم؟

كانت أسئلة كثيرة تخطر ببالي، أظنها تأثرت بما رأيته في تلك الليلة، أنا لم أستطع النوم، رأسي كان يؤلمني بشدة.

لم يكن هناك مفر، كان عليَّ زيارة ذلك العنوان، شعرت أني سأجد الراحة أخيرًا أو حتى أستعيد جزءًا ما من ذاكرتي المفقودة، حتمًا كان هناك سبب لاحتفاظي بتلك الصورة، هناك سأعرف السبب بالتأكيد.

على الفور ارتديت ملابسي واتجهت نحو البهو بالفندق، ذلك الرجل مجددًا بابتسامته الصفراء، بمجرد أن رآني أتجه نحوه استقبلني، كان يعرف جيدًا ماذا يريد ويعرف جيدًا كيف يأخذه.

- "صباح شريف يا أستاذ، كيف أخدم سيادتكم؟".

قالها بحركة رأس مترنحة واهتزاز.

- "أوامر، اِسترح، دقائق والسيارة تكون جاهزة".

صرخ بصوته المزعج:

- "يا عبدو جهز السيارة عندك مشوار بسرعة".

كان عليَّ الحذر بعد ما رأيته من أهوال، بدا أن مراد توفيق لغز لعين عليَّ إعادة اكتشافه ، كان الوصول لذلك العنوان على الصورة من دون أن ألفت الأنظار أو يلاحظ أحد ما تحركاتي مهمًا، الرجل الذي كان يحاول ملاحقتي بالمحطة جعلني أكثر حذرًا وترقبًا.

عندما اقتربت من الموقع قررت المواصلة سيرًا على الأقدام، كان ذلك أفضل حتى يكون أقل لفتًا للنظر.

خاطبت السائق: "تستطيع الوقوف هنا وسأعاود الاتصال بك عند انتهائي من الموعد".

بعد أن أقلَّني السائق بالقرب من العنوان المدوَّن، وكان وسط المدينة مكانًا جميلًا مليئًا بالحياة والحركة، نظرت إلى الأشخاص حولي، كلٌّ منهم يحمل قصة، كلٌّ منهم لديه غاية أجبرته على الحركة والبحث، البشر تجمعهم أشياء كثيرة، لكن قليلين من تجمعهم معي المعاناة نفسها!

بعد أن سألت مرة واثنتين على العنوان، أخيرًا وصلت إليه، لم أشأ أن أرتجل بل أردت أن أستجمع أفكاري وأحدد ما الذي أبحث عنه بالفعل، وربما القليل من المراقبة للأحداث من بعيد.

قررت الجلوس في أحد الأماكن القريبة، وجدت نفسي أجلس على قهوة زوَّارها من أهل المنطقة، بسطاء، هادئون، أغلبهم من كبار السن، تحسبه النعيم وهم سعداء بما يملكون بين أيديهم التي كانت تنضح بالعطاء والشقاء والصبر.

بينما كنت جالسًا اقترب مني أحدهم وألقى التحية وسألني:" الأستاذ غريب عن هنا، أنا أعرف كل أهل المنطقة، مقيم بها منذ نعومة أظافري، وأعرف أنك غريب، تحتاج مساعدة؟ أم تبحث عن شيء؟ أم أنت عابر فقط؟ فنكرمك باستضافتنا، كل أهل المنطقة أناس ودودون يحبون الخير للجميع، مترابطون فيما بينهم، كيف أساعدك؟".

أجبته بابتسامة وعيون مليئة بالأمل رغم الغموض المحيط بالمكان، وأنا لم أعتد بعد الأشخاص اللطيفة والطيبين، كيف لي أن أعتاد مثل ذلك؟!

أجبته: "شكرًا لك على الكرم والاستضافة. أبحث عن عنوان شقة عشت بها منذ عقود وتركت المنزل لدواعي السفر، والآن عدت بعد غياب طويل وأبحث... هلَّا ساعدتني".

تمتم الرجل الودود بابتسامة، ثم قال بلطف: "أهلًا بك، أفهم تمامًا ما تشعر به، بيوت الطفولة تحمل ذكريات وأحاسيس خاصة، لنشرع في البحث معًا، ربما تكون لدي معلومة قد تساعدك، أخبرني أكثر عن تلك الشقة أو العمارة التي كنت تسكنها قبل السفر".

أعطيته العنوان (١٥ حارة الديوان)، فأخبرني أن تلك العمارة قد هُدمت، كانت قديمة وانتقل معظم السكان إلى بنايات مختلفة، بعضهم بهذا الحي والآخرون تركوا المنطقة.

كانت خيبة أمل، حتى المكان والخيط الذي أبحث خلفه انقطع، ظهرت على وجهي ملامح الحزن وخيبات الأمل، اعتقدت أني سأصل إلى شيء ما يخبرني بحقيقة من أكون.

"أتتذكر اسم من تبحث عنهم؟ ربما استطعت مساعدتك".

فورًا تذكرت الاسم، أحمد بسيوني، ربما يساعدنا الاسم، كنت مترددًا في التصريح بالاسم، فأنا لم أعرف بعد قرابتي بذلك الشخص، أو ما يربطني به، لكن كان لا بد أن أحاول الوصول لأي شيء.

أجبته:

- " منزل أحمد بسيوني".

ظل صامتًا لمدة دقائق، نظراته تبدلت وارتسمت على ملامحه آيات الفزع كأنما رأى شبحًا أو شخصًا عاد من الموت، لم يكن يتخيل أو يتصور أنه قد يظهر مجددًا.

"أحمد بسيوني قد سافر للخارج تاركًا والديه منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، من دون عودة أو أخبار، وحاول أبواه بشتى الطرق البحث عنه، أو إيجاد أثر له أو أحد يدلهم ليتواصلوا معه، بل إن بعضًا منَّا ظن أن أحمد نفسه تُوفيَ في الغربة بعيدًا عن أهله وأنه لن يعود أبدًا".

ثم سألني بدهشة: "بيت أحمد بسيوني من تبحث عنه؟!".

أومأت برأسي تأكيدًا وأجبته: "نعم، هل تعرف أين يمكنني العثور عليه؟".

الرجل فاجأ الجميع وفاجأني بإعلانه: "أحمد بسيوني عاد؟".

لكن بدا أن هناك سوء تفاهم... انقلب عالمي مجددًا، جواب الرجل تسبب في توجيه اهتمامي إلى الوالدين، فسألته مندهشًا: "أين هما الآن؟!".

أجابني أنهما يعيشان في المنطقة نفسها، لحظات من الصمت والأفكار واللهفة، جال بخاطري أنني أحمد بسيوني نفسه، ولسبب ما قد غيَّرت الاسم إلى مراد توفيق، واضطررت إلى الابتعاد عن أسرتي لأسباب لا أتذكرها، لكن الأهم أنني وجدت ما كنت أحتاج إليه، أسرتي الضائعة، وسأعود لأرتمي بين أحضانهم وأجد الدفء والأمان الذي أبحث عنه.

مراد أو بالأحرى أحمد بسيوني، كنت أعيش لحظة غير عادية من التأمل والتأثر، اختلط الفرح والحزن في قلبي، وأنا أعيش في عالم من الذكريات المفقودة والأحلام الضائعة. بدأت بسرد اللحظات التي قد تكون قد أدت إلى تغيير اسمي وانفصالي عن عائلتي، ولكن التفاصيل ما زلت تهرب مني، الذاكرة لم تسعفني.

اقتربت من منزل والديَّ اللذان يعيشان في انتظار عودة ابنهما المفقود، تنفست بعمق وقررت أخذ الخطوة الأخيرة نحو اللقاء المنتظر.

ارتفعت أصوات الفرح والهتافات في الحي بأكمله حينما أعلنت عودتي إلى عائلتي ومنزلي، تسارع الجميع إلى المشاركة في تلك اللحظة الفارقة، إذ صرخ الرجل: "أحمد بسيوني عاد! عاد إلى أهله".

تجمع الأهالي بسرعة أمام البيت، تسارعت خطاهم نحو المنزل، حيث تنتظرهم المفاجأة الكبيرة، العجوز الحنونة جالسة في الصالة، وجميعهم اندفعوا نحوها في لحظة عائلية كانت أمسية من الفرح واللحظات الدافئة.

الفرحة والسعادة دقَّا صدري دقًّا، فقد وجدت أخيرًا ما يملأ فراغات قلبي الموجوع بالفقد والحزن، في تلك اللحظة المميزة غمرت مشاعر الفرح والسعادة قلبي الذي عانى من فقد موحش، وحدة وألم طويل، اللحظات الدافئة والعاطفية حملت الراحة والأمان، ملأت فجوات قلبي بالحنان والمحبة.

الكلمات الحانية عبَّرت عن اللحظة التي طال انتظارها، إذ وجدت أخيرًا الانتماء والراحة اللذين كنت أبحث عنهما، الفرح ملأ أجواء المنزل، والدموع التي راقبتها من الجميع كانت دموع السعادة، وأظنها كانت مُعدية ، فقد أصابتني تلك الدموع، أكدَتْ أني وجدت أحضان أحبائي، كل لحظة مرت

أثبتت لي أنني لم أعد وحيدًا، ترحيبات الأهالي وبكاؤهم فرحًا، كلمات الثناء واحتضانهم لي... كانت لحظات تعجز الألسن عن وصفها، كانت مشاعر الحنين والشوق تدفعني وسط الجموع.

العجوز انقضَّت عليَّ لاحتضاني مُقبِّلة رأسي ويديَّ وعيناها تنهمران بالدموع، ألحان الفرح والسعادة تملأ الأجواء بأحاسيس لم أختبرها قبلًا، كنت في غاية التوتر والسعادة ومشاعر الاستسلام للأحداث تمامًا.

في لحظة الانغماس في أحضان أمي العجوز، شعرت بدفء الحنان والحب الذي يبعث السعادة في أعماق قلبي، شممت رائحة الأرض، والغرف بدت مألوفة، كنت أعيش تلك اللحظة بكل ارتياح وسكينة.

احتضنتني العجوز بقوة وكأنها تريد نقل كل مشاعرها الحانية لي، قبَّلت رأسها بلطف، شعرت بالدموع التي تساقطت على وجنتيَّ، غمرني شعور غريب بالسعادة والاستقرار، نظرت إلى عينيها الممتلئتين بالفرح والتأثر.

ارتفعت النغمات في الهواء مطلقة الفرح والدفء الحقيقي، ليس الفزع والخوف الذي اعتدت عليه، اللحظات السعيدة أحاطت بي، أدركت أني وجدت الوطن الذي أبحث عنه.

اتصلت بزوجها ويداها ترتعشان ودموعها ما زلت تنهمر، أطلقت صوت الفرح الممتزج بالبكاء، وقالت:

- "أخيرًا أحمد رجع يا خالد، ابننا رجع، هو معي في البيت، ارجع فورًا، لقيناه... لقيناه".

وأظنها من هول الموقف لم تتكلم كلمة أخرى وأغلقت الخط.

عادت لاحتضاني، ونحن نعيش تلك اللحظة الجميلة المليئة بالفرح، بصوتها الحاني المرهق من أعباء الحياة، وعينيها العسليتين الممزوجتين بالدموع، اللون الذي عرفت الآن من أين اكتسبته.

قالت:

- "أوحشتنا يا أحمد، غيابك طال، الناس كلها قالت لنا إنك مش راجع، ولكن أنا كنت متأكدة إنك هترجعلي يا ابني".

تابعت أمي حديثها وهي تحتضنني بقوة، وعيونها مليئة بالفرح والتأثر، وضعت يدي بلطف على كتفها وقلت ببساطة وحب:

- "أمي، أنا هنا، ولن أترككما مرة أخرى. أنا عائد للقائكما، وفرحتي لا توصف بكلمات".

في تلك اللحظة وصل أبي للمنزل، انتفضت لاحتضانه ركضت نحوه ودموعي تنهمر، لكن هناك شيئًا ما بدا غريبًا، لم يكن سعيدًا، لم توحِ ملامحه بالسعادة أو حتى فرحة اللقاء، وجه اعتراه الجمود، وجه بلا ملامح.

شعرت أمي ولاحظت فورًا الغموض والجمود الذي اعترى وجهه، ظلت ملامحه خالية من التعبير، سار نحو الغرفة بخطوات ثقيلة، لم يتحدث، بقي فقط يطالعني بعيون غائرة وخطوط الهرم والكبر تحتضن وجهه الشاحب.

قررت أمي إعداد بعض الطعام وتركت الأجواء المشحونة، غادرت لتصنع طعم السعادة بيديها الحانيتين، تركتني لأواجه أبي، ربما أراد الحديث معي بمفردنا.

شعرت بشيء من الخيبة بعد مقابلة أبي الجافة، ولكن في المجمل كنت ممتنًّا لوجوده، جلس والدي وهو يطالعني بعيون الاستفهام والدهشة، وبصوت خافت قال:

- "الآن قررت العودة؟ أمك انتظرت لسنوات".

لم أعرف كيف أرد على تلك الكلمات، فأنا لم أعلم الأسباب التي دفعتني لذلك حقًّا، تأملت سؤاله للحظة، ثم ابتسمت برقة حتى أهدئ من وطأة اللحظة، لم أرد أن يتحول ذلك إلى نقاش يسبب مشكلة أو غضبًا، أردت الاستمتاع بدفء العودة من دون منغصات، فأجبته:

- "في الحقيقة كل تلك السنوات التي مضت كانت فعلًا صعبة. لكن الحاجة إلى العائلة ودفء الأسرة أخيرًا جعلتني أتخذ ذلك القرار.
شعرت أنه الوقت المناسب للعودة إلى حضن الأحباء والمشاركة في حياتكم مرة أخرى".

كان ما قاله في تلك اللحظات صدمة جعلتني أفقد رائحة طعام أمي الشهي الذي تعدُّه، صدمة صنعت الصمت حولي:

- "سأمهلك ثلاثة أيام فقط، ستقيم بغرفة أحمد، وعند انتهاء المهلة تعود مجددًا من حيث أتيت".

كلماته هزت الهواء، لم أستطع تحمُّل الموقف، كانت إجابتي له:

- "لماذا يا أبي تعاملني هكذا؟".

لم أكن أعلم سبب قسوته، أردت أن أخبره الحقيقة، حقيقة أني لا أتذكر شيئًا، ما مررت به حتى أجدهم، لكن ما رأيته وما مررت به لم أستطع البوح به، كل ما أخبرته به أني أحبهما وأني طالما حلمت بالعودة للمنزل، "بحثت عنكما". كانت كلماتي له بأن ابتعادي لم يكن قرارًا أخذته، ولكن من المؤكد أنني اضطررت إلى ذلك.

لِمَ تلك القسوة؟!

ألم تشتَق لابنك الوحيد؟!

أبي أحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى، هل ارتكبت في الماضي ما يجعلك غير قادر على النسيان؟ غير قادر على مسامحتي؟

كان جامدًا يقف بلا حراك، بلا تعابير، فقط عيون تتلألأ بالدموع لكن لا جدوى في أن أؤثر في ذلك الرجل، كان رده فقط أنه لا يريد سماع شكواي، لقد أمهلني ثلاثة أيام حتى أغادر فقط من أجل أمي.

- "لا تزعجها ولا تقم بأي شيء يغضبها أو يُحزنها".

لم أكن أفهم لماذا يعاملني هكذا، خرجت أمي بتألُّق من مطبخها، مُحضرةً مأدبة عشاء لا تُنسى تليق بلحظة العودة والفرح. امتزج عبق الأطعمة اللذيذة برائحة البهارات والأعشاب، ما منح الأجواء لمسةً من الدفء والاحتفال، بعد أن أطفأها أبي بكلماته.

تألقت السعادة في عينيها وهي تقول بابتسامة: "أتمنى أن تجدوا الطعام لذيذًا، وأن يكون هذا اللقاء بداية جديدة".

كنت أعيش الصدمة حينها من كلمات أبي غير المفهومة والتي حملت في طياتها القسوة والغضب تجاهي، خرج من غرفته بعد أن غيَّر ثيابه، وفاجأ أمي بكلماته: "أحمد سيقيم معنا ثلاثة أيام فقط، فهو مرتبط بأعمال كثيرة وسيعود مجددًا، سوف يتواصل معنا مجددًا".

استاءت أمي بسبب تلك الكلمات، فأنا لم أقضِ الليلة بعد، وها هو أبي يصرح أني مغادر مجددًا.

لكنها تفهمت الموقف وتجنبت أن تفعل شيئًا يزعج الجميع، أرادت فقط أن نحتفل بالعودة.

انتهينا من الطعام، كانت ساعة متأخرة من الليل، اليوم كان طويلًا جدًّا، والفرح منهك أيضًا لكنه جميل، مرت الليلة ببطء، وسحر دفء الأسرة فاض في الجو، ما أسهم في خلق أجواء هادئة ومريحة، لكن حتى مع ذلك الدفء وفي ظل السكون، جاءت الفرصة للأفكار والذكريات لتجول في خيالي.

رغم تلك اللحظات الهادئة، اعلم أن الراحة الحقيقية تأتي بالوجود بين أحضان العائلة.

راودتني أفكار كثيرة، كيف لي أن أتخلى عن ذلك الدفء؟ لماذا غيَّرت اسمي؟ لماذا أبي حانق ومستاء؟ لماذا ليس سعيدًا أن ابنه قد عاد؟

مجددًا أسئلة وأفكار تعصف بذهني، لكن ذلك اللقاء قد ترك إحساسًا بالرضى جعل قلبي يهدأ في تلك الليلة.

لم أستطع النوم العميق، كان ذلك صعبًا جدًّا، منذ استيقاظي فاقدًا الذاكرة وفاقدًا معاني الحياة، لكن معنى جديدًا أضيف مؤخرًا إلى ما أحمله، قررت الذهاب لأعوضهما عن القليل ممَّا عانياه من دوني، من خلال ما رأيته في تلك الفترة الصغيرة من معاناة فهما كهلان، وبدا عليهما الزهد والتعفف، والدي يعمل من الصباح الباكر ليعود في نهاية اليوم متعبًا مكبلًا بالعناء.

خرجت لأشتري الكثير من الأشياء تعويضًا عمَّا فقداه في أثناء غيابي الطويل، وعدت مجددًا لأستمتع بهذه المشاعر وسط ذلك البيت الدافئ، تملأ أصوات الضحك والسعادة الأرجاء، والمشاعر الإيجابية ملأت القلوب، شعرت بالسرور حين رأيت وجه أمي يتلألأ بالفرح، قضيت وقتًا مميزًا واستمتعت بكل لحظة وسط ذلك البيت الرائع الذي أصبح مليئًا بالحياة والأمل من جديد.

عاد والدي بالوجه نفسه والملامح نفسها، "كأنني لا أروقه، لماذا ذلك الجمود؟".

لم أعرف طبيعة العلاقة بين الابن والوالد، فأنا لم أتذكر الكثير، لكن شتان بين ما قدمته أمي وما يخفيه أبي عنا، لماذا عاملني بتلك الطريقة؟

مر اليوم الأول وأنا لا أفكر بشيء سوى الاستمتاع مع أمي والجو الدافئ الذي لم أشعر به قبلًا، اليوم الأول حمل أحاسيس مختلطة بين الفرح بلقاء العائلة والحيرة حيال تصرفات أبي، استمتعت بالأجواء الدافئة، ولكن الجمود في وجه أبي وتصرفاته الغريبة أثارا التساؤلات.

كان يحمل صراعًا في داخله، وربما هناك أسباب خفيَّة جعلته يظهر بتلك الطريقة، قد تكون بداخله شكوك أو تساؤلات حول هويتي الحقيقية، ولكن لم يكن هناك تفسير لتصرفاته بشكل واضح.

" ربما مع تقدم الأيام تتضح الأمور وتظهر الأسباب الحقيقية وراء ذلك السلوك".

ذلك ما كنت أحمله برأسي وأرجوه بين أضلاعي، لم أكن أحب أن تكون علاقتي بوالدي على هذا النحو، من ثمَّ حاولت التودد إليه لكن من دون فائدة.

في الليل جافاني النوم مجددًا، وبدأت الأفكار وما حدث في فيلا يوسف عز، كنت قد حاولت ألا أفكر في تلك الأمور، فكيف لها أن تعاود الظهور، عقلي مشتت، لكن لم يعد ذلك مهمًّا، كنت متأكدًا أنه مع الوقت سأجد جميع الحلول وأصل إلى شيء ما.

كانت نظرات أبي المتجهة نحو أمي كلها امتنان ورحمة، بل أكاد أجزم أني قد رأيت ابتسامة أو اثنتين وهو يراقب زوجته، وكأن الحياة تدبُّ في أرض قاحلة، لتبدو كأن المطر غمرها وعادت إليها الحياة، كان سعيدًا بما أصاب أمي ولكنه كان يخفي شيئًا ما، كنت فاقدًا الذاكرة لكنني أعلم كيف أقرأ العيون.

لم أدرك ما حلَّ بي، بدأت بالاهتمام بهما كثيرًا رغم كل ما أصابني، فقد شعرت بالترابط والاهتمام نحوهما، الأفكار والمخاوف ملأتني.

مرَّ اليوم الثاني وفي نهايته خاطبني والدي على غير عادته، فقد كان يتلاشى الحديث معي أو مخاطبتي، أراد أن يصطحبني معه في الصباح قبل أن أرحل، كان ذلك العرض فرصة لفهم الوضع بشكل أعمق، وربما الكشف عن جوانب جديدة من حياتي السابقة.

- " بالطبع، يا والدي". أجبته بابتسامة محاولًا التظاهر بالاستعداد.

رغم الغموض الذي يكتنفه، شعرت أن هناك شيئًا مهمًا يتجاوز الكلمات ينتظرني في ذلك الموعد.

كانت رغبتي بالبقاء وسط أسرتي أكبر وأكثر ممَّا مضى، منذ وجدتهما لم أستطع أن أخفي مشاعري باللهفة والسعادة بما هو آت، كنت غاية في الإثارة، ارتديت ملابسي واستعددت.

غلب على مشاعري خليط من اللهفة والقلق بينما أستعد للرحيل، تساءلت عمَّا سيكشف لي والدي خلال تلك الرحلة، انطلقت معه وأنا أحمل قلبًا ناضحًا بالمشاعر المتضاربة، متوقعًا الكثير ويخشى في الوقت نفسه الكشف عن الأسرار، أكمل الطريق مع العائلة لأترك ورائي الماضي وأستعد لاكتشاف مستقبل غامض.

في تلك اللحظة لم أكن أعلم أن رغبتي الشديدة في معرفة السر ستقودني إلى المقابر، كانت الرحلة تحمل تحديات ومفاجآت لم أكن أتوقعها، وكل خطوة تقربني من الإجابات تكشف عن طيات مظلمة في الماضي.

فور وصولنا المقابر شيء ما من الذاكرة يعود، جنازة مهيبة تذكرت تفاصيل منها، ملابس سوداء، وجثمان يحمله أربعة

أشخاص، لم تكن الصورة واضحة، لكن بعض التفاصيل موجود، يوسف عز حاضر، كنت أقف أيضًا بجوار امرأة تحمل رضيعًا ويقف بجوارها طفل لم يتجاوز الثلاثة أعوام بعد.

آلمني رأسي بشدة، لأول مرة تهديني الذاكرة شيئًا ما، لم أكن أعرف جنازة من تلك؟ ولمَ يحضرها يوسف عز؟ ومن تلك السيدة؟

لم أتذكر سوى تمتمة يوسف عز وهمساته بأذني يقول:

- "لا تثق بأحد".

انقطع حبل الذاكرة بمجرد أن ناداني أبي:

- "تسمعني؟".

وكأنني كنت غائبًا عن الوعي أجبته:

- "نعم".
- ثم سألته:
- "لماذا نحن هنا؟".

أشار لي أن نكمل طريقنا، ثم حدثني بصوت رخيم يشي بالحزن:

- "أعلم أني لم أعاملك جيدًا منذ عودتك، لكن لا أعرف كيف أشكرك عليها، وكم أنا ممتن حقًّا لك ولتلك الزيارة، لكنه السر الذي احتفظت به طوال ثلاثين عامًا، ظللت أخفيه كل يوم عمَّن هم حولي، أقربهم تلك العجوز التي تركناها بالمنزل".

لم يكمل حديثه رغم كل الغموض الذي اتسم به، والحيرة التي أصابتني كصاعقة تهبط من السماء، فقط أشار بيده نحو أحد شواهد القبور... صدمة غير متوقعة، وقفت أراقب الشاهد لأرى اسمي مدونًا عليه، أحمد خالد بسيوني، وتاريخ الوفاة يعود لأكثر من ثلاثة عقود...

"هل أنا ميت؟! ما هذا؟".

خاطبته بكل معاني الاستنكار والغرابة:

- "اشرح الأمر يا أبي من أرجوك؟".

"إذا كان ذلك الشاهد قبري، فمن أكون؟".

احتضنني وهو يجهش بالبكاء ويصدر صوت الأنين، بعد كل شيء لم يكن بتلك القسوة، بداخله براءة وقلب يعتصره الألم والحنين!

هدَّأت من روعه:

- "التقط أنفاسك وحاول أن تشرح لي كل شيء".

جلسنا معًا أمام قبري، وأجابني بعد أن أخذ عدة أنفاس طويلة، بصوت حانٍ متقطع بدا عليه الندم:

- " لم أكن لأسمح أن تكون تلك ذكرى أحمد ولدي، لم أستطع ذلك، أحمد كان محتَجَزًا بإحدى المصحات النفسية، كان يعاني الكثير من الأعراض التي استوجبت بقاءه هناك للعلاج، عانى الكثير، وأنا كما ترى لم أدرك ما الذي أصابه، قبل أن يخرج ويعود للمنزل لم يستطع أحد إنقاذه، أقدَم على الانتحار، تُوفيَ ولم يكن هناك أحد بجواره، أنا لم أكن بجواره".

كان يتحدث والدموع تتساقط من عينيه، يتحدث وكأنه يحمل الذنب لا السر.

أكمل حديثه قائلًا:

- "بعد أن خاطبتني المصحة لم أستطع أن أصارح والدته بهذا الأمر، حتى أقرب الناس إلينا، لم أقوَ على أن أجعل أحمد مجرد ذكرى، كان الشيء الواضح أمامي أن أختلق تلك الكذبة، أنه خرج وقرر الهجرة والابتعاد عن كل شيء، قرر الهجرة والعمل والاستقرار بالخارج كالكثير ممن حوله، وتحت وطأة الظروف نفسها".

"بدأت بكتابة الرسائل وإرسالها للمنزل، التي تفيد أنه بخير وأنه سوف يعود لزيارتنا، حتى لا تحزن أمه ولا يُفطر قلبها، وحتى تكتمل الكذبة التي اجتهدت أن تصبح حقيقة، أخفي في طيَّاتها سِر ولدي الوحيد، وأحمي قلب زوجتي".

"وبعد فترة توقفت عن إرسال الرسائل، أنا أعلم جيدًا أن الموتى لا يعودون، فقط تبقى ذكراهم، كان ولدي صغيرًا وحيدًا ولم أكن هناك من أجله".

بكى خالد بحرقة وألم، كانت خسارة وخيبة أمل كبيرة، حسرة اعتصرت قلبي وصدري، ظننت أنني وصلت إلى شيء ما، أخيرًا بعض الدفء والأمل بداخلي، لكن لا شيء يدوم...

أين أسرتي؟ حياتي الضائعة؟ ذلك الكابوس الذي كنت أعيشه لم يستسلم بعد حتى يقضي على ما تبقى مني.

احتضنت خالد وربَّتُّ على صدره:

- "لا عليك، اهدأ، أكمل حديثك ربما خفف ذلك عنك"

أكمل حديثه:

- "طوال ثلاثين عامًا وأنا أحمل أعباء ذلك السر ثم تظهر أنت، في بداية الأمر بعد أن اتصلت زوجتي وفجعتني بخبر وصولك المنزل، كنت خائفًا ومرعوبًا، كيف لكذبة أن تصبح حقيقة؟ كيف عاد أحمد؟! الأموات لا يعودون.

- كنت متأكدًا أنك أحد المحتالين أو النصابين تعرف تفاصيل القصة وتريد التسلل إلى المنزل بهدف السرقة أو شيء ما، كنت عائدًا لطردك أو القبض عليك وتسليمك للشرطة، فأنا الوحيد الذي يعرف الحقيقة، لكن منعني عن ذلك وجه زوجتي، طوال ثلاثين عامًا لم أرَ تلك السعادة والفرحة ترتسم على وجهها، أنت أيضًا يا بُني كنت سعيدًا، لم تكن ملامحك تدل على شر أو ضرر، لم أكن أعلم ما طبيعتك وماذا تريد، لكن كنت متأكدًا أنك لم تصطنع تلك المشاعر، ربما لا تتذكر شيئًا ربما تقاطعت أقدارنا.

سبَّب لي ذلك توترًا وجمودًا، لم أكن أعرف ماذا أصنع معك؟ كانت نواياك حسنة، أنت لم تكن شخصًا سيئًا، لذلك كان قراري أن تبقى ثلاثة أيام حتى أستطيع التفكير جيدًا بما سأفعل معك ومع زوجتي، لم أستطع طردك بعد تلك المشاعر والسعادة التي رأيتها على وجهها البريء، سيفطر ذلك قلبها.

- أشكرك يا بني، أنا لن أستطيع رد هذا الجميل، امتناني وشكري لك عاجزان عن رد هذا الدَّين، لم يكن لزوجتي سواي وذكرى أحمد التي أحييتَها بقدومك إلى منزلنا، أنا شاكر للظروف التي جعلتك تصيب منزلنا الحزين ذلك، لا أعلم لماذا زرتنا لكنها الأقدار، أرجو منك أن تحتفظ بهذا السر، وأتمنى ألا تهجرنا، عُد مجددًا من اليوم ذلك منزلك ونحن أهلك".

كانت كلمات خالد مليئة بالحكمة والعطف، لم يكن قاسيًا كما رأيت، كيف ظل يحتفظ بمثل هذا السر طول كل ذلك الوقت؟!

- "لا تقلق، بالتأكيد ذلك منزلي وأنت وأمي أسرتي، ما فعلته دلَّ على حب كبير، وأعتقد أنه كان الأفضل والأصلح للجميع".

عدنا إلى المنزل مجددًا، وفي الطريق كان ألف سؤال وسؤال يدور في ذهني المتعب، ولما دخلنا المنزل دلَّلني خالد أمام أمي وهو يحيط كتفيَّ بذراعه، وصرَّح:

- " لم تملأ الأيام الثلاث مدى اشتياقنا لك يا ولدي، سعداء بك".

مشاعر السعادة والفرح ملأت وجه العجوزين والمنزل من حولهما، بالطبع سأعود مجددًا في أقرب وقت... لم أصل إلى شيء سوى لمحة عادت من الذاكرة تحمل في طيَّاتها الغموض والأسرار ويوسف عز، لكن يكفيني ما شعرت به من سعادة ودفء في أحضان أمي، المشاعر المليئة بالحب والتفاؤل دبَّت روح الحياة مجددًا في جسدي المنهك المتعب من أهوال الظلام، كنت سعيدًا بتلك المشاعر، وسعيدًا بما قدمته لذلك المنزل.

ودعتهما وغادرت نحو الفندق، لم أرد أن يلحق بي أتباع الظلام إلى ذلك المنزل، تفاصيل الذاكرة التي عادت كانت كفيلة أن تفتح بابًا جديدًا للغز آخر، كان عليَّ المُضي خلفه حتى أجد طريق الخلاص من ذلك الحاضر الأليم.

الفصل الرابع

بعد أن أيقنت أنه لا جديد في الهروب من ذلك الواقع، أصبح لديَّ دافع جديد أن أواجه ما يدور من حولي، تنمو داخلي قوة جديدة.

"لن أستسلم، سأواجه ذلك الواقع بكل ما أملك".

رغم الخطر حولي، اعتقدت أن زيارة خالد الأخيرة نشَّطت جزءًا ما بذاكرتي، بدت زيارتي لبعض الأماكن مهمة، قد جلبت ربما مقتطفات ومشاهد من الذاكرة الغائبة، كان الحذر والحرص مهمَّين، يوسف عز وأتباعه يلاحقونني، بالتأكيد أصبحت مصدرًا للخطر والتهديد لا يمكنهم السماح به، ما رأيته دليل على ذلك، أشخاص مظلِمون ودمويون سيفعلون أي شيء في سبيل الحفاظ على مصالحهم تلك.

شعرت بخيبة أمل وإخفاق في محاولة إيجاد المساعدة، أو اللجوء إليهم للحصول على الهدوء والراحة حتى لو كان قليلًا، استوعبت كيف يكون إحساس الدفء والأسرة بعد أن عشت تلك اللحظات رفقة خالد وزوجته، معنى أن تنتمي لمن يقدم لك المحبة والمودة وشعور الأمان، كل ذلك صدقته وشعرت به حقًّا، لكن سُلب مني بعد أن أظلمت الحقيقة بردائها.

بداية من جديد، لكن أين؟

لم أستفد كثيرًا ممَّا جمعته من الفيلا، فقط استشعرت وجربت معانيَ بعض المشاعر الجديدة، من دون حقائق أو معلومات عن ماضٍ أصبح أكثر غموضًا وظلامًا، لكن لا مجال للتراجع، لا حلَّ آخر سوى المُضي والمحاولة، قطعت وعدًا

لن أتراجع عنه، ما رأيته بالحفل وما فعلته جعل من الضروري مواصلة البحث عن ذاكرتي المفقودة.

حاولت الهدوء، استرجاع شيء من بعض المشاهد أو الصور المحبوسة في ذهني، ذلك الصداع كاد يمزق رأسي، لم تفلح الأدوية والمسكنات في معالجته، فقط بعض ساعات من الراحة ثم الألم مجددًا.

لم أستطع النوم، لحظات من الغفوة ثم أستيقظ بصحبة الألم، كأن عقلي خائف، يخشى أن يغيب عن ذلك الواقع، أم أن لحظات الرعب والفزع الي عانيتها بقصر الشيطان منعتني؟

لا أعرف السبب، حتى تلك اللحظات التي استعدتها من الماضي لم تجلب الكثير، ذاكرتي خانتي، مؤلم ذلك الشعور، لم أستطع تحمُّله، تفقدت هاتفي، ظهرت رسالة أن هاتف الحكيم متاح، ما زالت الحياة تهبني لمحات من الأمل والفضول، عادا ليدقا بابي.

الرقم الذي حاولت الاتصال به كثيرًا، استطعت الوصول إليه.

"ربما خدعة، يحاولون استدراجي لفخ أم ماذا؟".

تردد وخوف، لا أعرف ما الذي عليَّ فعله، لكن الفضول والرغبة كانا المحفز لأفعالي، كنت حذرًا، لم أشأ إضاعة أنصاف الفرص، لعل ذلك الاتصال كان مفتاح حل ألغاز مراد توفيق، لم أكن أعلم في تلك اللحظات شيئًا.

أمسكت الهاتف بيديَّ المرتجفتين وقررت الخوض في لغز حياتي المفقودة، وبينما كانت الأصابع تتحرك بتردد نحو شاشة الهاتف، شعرت بقلبي ينبض بشكل متسارع، لكن الإصرار والرغبة ينتصران دائمًا.

- "آلو... مرحبًا، آلوو".

"اكتفيت بالصمت والأسئله في رأسي تتخبَّط، كان مغلقًا، لقد حاولت قبل ذلك، والآن هناك من يجيب، فهل يعرفني؟".

- "مرحبًا".

صدح صوت رخيم هادئ من الطرف الآخر يقول:

- "تسمعني؟ كيف حالك سيد مراد؟".
- "بخير، كيف حالك؟".

- "هذا ليس ما اتفقنا عليه، لقد أخبرتني أن أنتظر اتصالك خلال شهر، ما الأمر، أهناك مشكلة؟ بدأت تُشعرني بالقلق".

"أدركت أنني قد فهمت الأمور بشكل خاطئ، لكنني لم أكن قادرًا على تقديم أي تفسير"

- "أعتذر، لكن الأمر مهم، استمرار حديثنا هاتفيًّا لن يثمر، أعتقد أنه من الأفضل أن نلتقي، ما رأيك؟".
- "تسألني ما رأيي! أنا الذي حاولت مقابلتك مرارًا وأنت ترفض منذ أكثر من عام، وأنا أحاول بينما أنت تجيب ليس الوقت مناسبًا لذلك، لكن لا بأس، أين نلتقي؟".

بدأت أفكر، أفضل مكان للقائه مكان عام، يضفي نوعًا من الأمان...

- "حسنًا، أغلق الآن وسوف أتصل خلال ساعة لأطلعك على موعد اللقاء والمكان، كن جاهزًا".
- "أفهم ذلك، سأكون بانتظارك".

انتهت المكالمة، وبينما أغلق الهاتف بدأت التفكير في اللقاء القادم والأمور الغامضة التي قد تنكشف، كان عليَّ التفكير جيدًا قبل التحرُّك أو اختيار مكان للقاء، الحذر والحرص بألا أُعرِّض نفسي للخطر، لم أكن أعلم إذا كان الحكيم قادرًا على مساعدتي أو توضيح بعض الأمور العالقة بذهني، ما حملته من تساؤلات وأفكار كثيرة، كان عليَّ العمل جاهدًا لفك غموض مراد توفيق وألغازه.

اتصلت به مجددًا:

- "أنت جاهز؟".
- "نعم جاهز".
- "حسنًا، سأكون بانتظارك في المتنزه وسط المدينة، لقاؤنا بعد ساعة، ستجدني بملابس سوداء، اجلس على أحد المقاعد، فقط اجلس بجواري وبهدوء، قل أنا الحكيم يا مراد".
- "أنت مريب جدًّا، صوتك، طريقتك، هناك خطب ما بك، أقسم أنه لو لم يكن صوتك ولو لم تنادني بالحكيم كما عاهدتك لقلت إنك شخص آخر أو تحت تهديد أو ما شابه!".
- "لا تقلق، لا توجد مشكلة، أنا فقط أريد التحدث معك".
- "حسنًا، إلى اللقاء".

يبدو أن ذلك الرجل يعرف مراد توفيق جيدًا، لقد شعر أن شيئًا مختلفًا بي، ذلك الرجل سيساعدني حتمًا، لقاؤه كان مهمًّا جدًّا لي، الأفكار تسللت إلى رأسي، يتوالى بعضها خلف بعض، كأنه فيض نهر جارٍ، لمدة عام لم يرَ أحدنا الآخر بناء على رغبتي، لكن لماذا؟

لم أرد لقاءه، لا يهم، كانت الأفكار أكثر وضوحًا وترددًا... "هل أطلعه على سِرِّي؟ أم أنتظر لأرى ما إذا كان يستحق الثقة؟ لا أعلم حقًّا، ستكشف اللحظات القادمة كل شيء، شعرت بقليل من الأمل والتفاؤل، "حتمًا سيقدم ما يفيدني".

وصلت المتنزه والأفكار لا تنقطع ولا تهدأ، اخترت مقعدًا وجلست أنتظر الحكيم، ورأسي يضجُّ بالتساؤلات، الخوف ممَّا سيُطلعني الحكيم عليه.

لم أرد معرفة حقائق أنا غير قادر على تحمُّلها، فاجأني أحدهم بالجلوس بجواري **وهمس:**

- "كيف حالك؟ الحكيم".

أشار بإصبعه نحو صدره.

ابتسم فبادلته الابتسام وقلت:

- "تفضل".

لم أكن أتوقع أن يبدو الحكيم بذلك المظهر، في الخمسين من العمر، يرتدي النظارات، شعره الأبيض يتلألأ، يرتدي بنطالًا وقميصًا، لم يبدُ مريبًا أو مصدرًا للقلق.

كنت أنا من يلفت النظر وليس هو!

جلس يتفقدني، بدا رجلًا ذكيًّا يمكن أن يكون محلًا للثقة، ذلك ما شعرت به.

"لماذا القلق والتوتر؟ خطتنا تسير على نحو جيد، وقد أخبرتك آخر مرة تحدثنا، الآن تريد أن نلتقي، ما الذي حدث؟".

لم أستطع مجاراته في الحديث، فأنا لا أتذكر شيئًا، ولا أعرف عمَّا يتحدث، وإن أخطأت أو قلت شيئًا ما مريبًا لهذا الرجل فأنا غير واثق من ردة فعله، قد يهمُّ بالرحيل ويتركني فور شعوره بأي قلق أو خوف.

أخذت نفسًا عميقًا ثم خلعت نظارتي ليشعر بقليل من الراحة، ويتأكد من مدى صدقي، بينما كان يراقب حركاتي بعناية، وأعتقد أنه لاحظ توتري وقلقي، ومرت لحظة من الصمت **ثم قلت له بصراحة ووضوح:**

- "أيها الحكيم، لا أتذكر شيئًا على الإطلاق!".

وأضفت:

- "حاولت الاتصال بك لكن لا فائدة، كان الهاتف مغلقًا، والآن أنا هنا، ربما تساعدني قليلًا حتى أتذكر أي شيء، لا أعرف ولكن عند رؤيتي لك شعرت بشيء من الأمان والثقة لأطلعك على سِرِّي، لا أريد أن تأخذ الأمور شكلًا مختلفًا، أعرف أن هذا الوضع مريب بعض الشيء، لكن أحتاج للمساعدة".
- "سيد مراد، لا داعي للقلق... في البداية يجب أن تعرف اسمي، د. زهير، أعمل في مجال الفيزياء الحيوية، وأنا أعمل لصالحك على مشروع قد اقترحته منذ سنتين، حدث ذلك بعد مؤتمر كنت مدعوًا إليه لإلقاء كلمة عن مشروع الدكتوراه الخاص بي (السيطرة اللغوية والعصبية على العقل)".

استمعت إلى كلمات د. زهير بانتباه، شعرت ببعض الدهشة لتلك المعلومات، **فقلت له:**

- "اشرح المزيد".

بينما كنت أفكر "ربما كان هذا هو المفتاح لاستعادة بعض الذكريات المفقودة".

تفاجأت بعدها بوجود ممول ضخم عرض التمويل والدعم المالي لتلك الفكرة، ومعملًا مجهزًا تحت قيادتي، لكنه اشترط أن يبقى مجهولا ، وكان ذلك مخيفًا، رفضتُ لكنك تواصلت معي وتناقشنا حول ذلك الموضوع، وبعد تفكير عميق وإصرار كبير منك، وعرضك السخي، تحدثنا مرارًا حول أهمية ذلك المشروع، وأنه من الخطير عدم وجود رادع لمثل تلك العملية (السيطرة)".

"هنا بدأت الصورة تتكون في ذهني، حاولت فهم السياق بشكل أفضل".

"هل يمكن أن يكون ما يقوله حقيقيًّا؟ لماذا أهتم بتلك الأمور؟ هل يمكن أن يكون للجمعية علاقة؟ هل يعلم يوسف عز شيئًا ما عن كل ذلك؟".

تذكرت يوسف عز، وأنه قد تكلم وأشار إلى ذلك من قبل، سألني بالفعل ألم نقترب من إنهاء المشروع الذي نُموِّله؟

"هل توصلت إلى شيء كنت لا أعرفه على الإطلاق؟ عمَّا يتحدث؟ ولكن كنت أحاول قدر الإمكان المماطلة واستخلاص المزيد منه، حتى تتسنى لي معرفة ماذا يقصد.

لكن الآن أدركت شيئًا مهمًّا للغاية، مراد القديم لم يكن يثق في أحد، وقد ترك ذلك الموروث بداخلي، أدركت أن الحكيم يقول الحقيقة، صادق في كلماته ونبرة صوته، عيناه كذلك تشيان بالحقيقة، صدَّقت ذلك الرجل ووثقت به.

"أطلعتك على تقدُّم كبير منذ قرابة الشهر، وقد أثنيت على العمل وطلبت إنهاءه في أقرب وقت ممكن، قائلًا إنك ستتصل بعد شهر لتستلم النتائج النهائية والبيانات، والآن نحن هنا وجهًا لوجه، هل تشك أن أحدًا ما على علم بالمشروع أو بما نحاول القيام به؟ هل محوا ذاكرتك؟ يريدون هدم المشروع! هل نحن في خطر؟".

"اهدأ يا زهير ولا تقلق، ليس هناك ما يدعو للخوف، فقط حاول أن تهدأ، لنرى ما يمكننا استرجاعه معًا، لنتعامل مع ما ندركه ونعرفه جيدًا".

"كلامك لا يدعو للاطمئنان يا سيد مراد".

"يجب أن أتذكر شيئًا ما أو شخصًا ربما يساعدني، فكّر معي دكتور، منذ فترة ونحن نتواصل، بالتأكيد تعرف معلومات قد تساعدني؟".

"أنت لم تطلعني على الكثير خلال محادثاتنا معًا، سألتك عن أسرتك، زوجتك، أولادك، إجاباتك لم تكن شافية، ولم أرد أن أبدو فضوليًا وأنت لم تمنحني المساحة لذلك، لم نكن نتحدث معًا كالآن، كنت دومًا غامضًا معي".

"هذا ما كنت أشعر به منذ استيقاظي، هذا أكثر ما يؤلمني الآن يا د. زهير، لا أتذكر عنهم شيئًا على الإطلاق، فقط بعض المشاهد غير المكتملة من الذاكرة، لماذا تحدث الأمور السيئة معي؟!".

"الحياة تستمر يا سيدي، ويجب عليك التأقلم مع ذلك، لا تشعر بالأسى لنفسك حين تواجه مثل تلك الأمور، يجب أن تساعد نفسك سيد مراد، تلك هي طريقة التعامل مع الأوقات العصيبة، ذلك مهم، يجب عليك المُضي قُدمًا وليس الرجوع للخلف".

"لا أعلم حقًّا يا د. زهير".

"حتى المُضي قدمًا، ومحاولة التعامل مع ذلك الماضي الغامض، لم يجلبا غير الفشل، ومواجهة أمور أكثر غموضًا وظلامًا، أعتقد أن ما أواجهه الآن استثنائي، وأنا غير قادر على المواصلة.

نظر لي ثم أطبَق يداه ونظر إلى الأمام، ثم قال كلماته التالية التي بدت وكأنها سحر غيَّر ما بداخلي:

"الأشياء غير العادية دائمًا ما تحدث لأشخاص استثنائيين، ربما هي علامة أنك تملك ما هو استثنائي بداخلك، شيء أكبر ممَّا كنت تتخيله".

"كلماتك تريح عقلي وقلبي المضطرب، أنا شاكر لك".

"هوِّن عليك، أعلم تمامًا أنك في وضع لا تُحسد عليه، الأمر صعب ومعقد، أستطيع تخيُّل المعاناة التي تمر بها حقًّا، لا أستطيع تحمُّل فكرة أن أستيقظ من النوم من دون تذكر وجه ابنتي".

"ألديك أبناء؟".

"نعم، ابنتي تعمل معي بمركز الأبحاث، تدير أحد الأقسام، أنت لا تعرفها، كنت قد ذكرتها مرة أو اثنتين".

"من الجيد أننا تواصلنا، كنت في أمَسِّ الحاجة إلى أن أجد من أستطيع الوثوق به، لم أكن لأستطيع التحدث مع أي شخص".

"الأمور الآن مختلفة... ابتسامة ذلك الرجل كانت مريحة، ودافعًا للشعور بالأمان".

"ألم تجد ما يساعدك حتى تتذكر؟ أي شيء، أنت تعيش بمفردك، أعتقد ذلك؟".

"نعم، حاولت لكن لم أجد الكثير، حتى أنت د. زهير، لم أجد غير رقمك مسجلًا بهاتفي، حاولت مرات عديدة أن أتواصل معك لكن من دون فائدة، كان هاتفك مغلقًا".

"أعتذر، لكن كما أخبرتك لم يكن اتصالك متوقعًا، لم أعتد أن نتحدث كثيرًا، كنت أتمنى مساعدتك بطريقة أفضل أو إخبارك بما تحتاجه... اِسمع، ما رأيك أن تقيم معي هذه الفترة؟ البقاء بمفردك في ظروف كهذه ليس جيدًا، وأنا لا أستطيع تركك هكذا".

"شكرًا د. زهير، أقدِّر هذه المشاعر النبيلة، لكن هناك بعض الأمور لا أريد أن أزعجك بها الآن، عليَّ التعامل معها بمفردي".

"لم أشأ أن أسبب له أي مشكلة أو أُعرِّضه للخطر، ولم أستطع أيضًا أن أخبره بأحداث المزرعة أو أني مُطارد، فأنا غير متأكد من أي شيء الآن".

"رغم فقدانك الذاكرة، تظل الشخص نفسه لكن بطريقة أخرى، تُفضِّل الاحتفاظ دائمًا ببعض الغموض لنفسك".

"د. زهير، حاول أن تبحث أو تسترجع بعض ما حدث بيننا، فور تذكُّرك أي شيء فقط أخبرني، لربما توصلنا لشيء ما معًا".

"بالطبع، سأحاول استرجاع أي تفاصيل قد تكون مفيدة، والآن ماذا أفعل؟ ما الذي سيكون مناسبًا لك؟".

"الآن لا شيء، فقط عُد إلى عملك وحاول أن تتذكر شيئًا، وأطلعني على الفور، حافظ على هدوئك وكن حذرًا، سأتصل بك لاحقًا".

"حسنًا، سيد مراد".

"نظرت إليه، كانت نبرته حادة كأنه سيُطلعني على شيء مهم للغاية".

"نعم د. زهير، ما الأمر؟".

"الصوت... ليس الذي أحدثك به الآن، لكن ذلك الذي بالداخل، ذلك الذي يهمس بداخلنا، يخبرنا بما هو صائب وما هو ليس كذلك، أحيانًا يكون واضحًا بما فيه الكفاية، اهرب، ابقَ، هذا صحيح، ذلك خاطئ... أحيانًا يهمس فقط، ذلك الصوت لا تدعه يختفي بداخلك وسط كل هذا الصخب الذي تمر به، ابحث عنه دائمًا، وتعلَّم أن تستمع له جيدًا، لأنه في النهاية لا أنا أو غيري يعلم ما الذي يناسبك أو ما الذي قد يكون جيدًا لك، ثق به، اكتشفه واِستمع إليه، كان يجب أن أقول تلك الكلمات، أتمنى أن توَفَّق، أنت شخص جيد سيد مراد".

"إلى اللقاء".

غادر د. زهير، كانت كلماته مضيئة بالأمل والتفاؤل، لكنني ظللت في حيرة من أمري، بل أكثر حيرة من أي وقت مضى، "ما قصتك يا مراد؟ مَن أنت؟".

كيف أكون عضوًا وزعيمًا لجماعة مثل تلك، وأحاول القضاء عليها بمساعدة د. زهير، يوسف عز يعلم بالمشروع، ولكن التفاصيل مختلفة تمامًا، مَن أخدع؟

زهير؟ أم أتباع الظلام ويوسف عز؟ لم أستطع التفكير فيما يدور حولي، كيف لي أن أصنع كل تلك الأمور؟

ما ذلك الغموض مراد؟

آلمني رأسي وبدأت يداي ترتعشان مجددًا، لم أستطع تذكُّر أي شيء، حتى كلمات يوسف عز لي "لا تثق بأحد".

الأمور أصبحت أكثر خطورة الآن، يوسف عز لن يتركني أشكِّل خطرًا عليهم، سيستمرون بالبحث ومحاولة القبض عليَّ، كلما توصلت إلى شيء أصبحت الأمور أكثر تعقيدًا وغموضًا، الهدوء والحرص أصبحا أكثر ضرورة، كان لا بد من اكتشاف حقيقة مراد توفيق، حقيقتي.

كانت تلك اللحظات مليئة بالأفكار المتضاربة في رأسي، ما جعلني غير متزن أو مستشعر لما هو حولي، أحتاج عُزلة وسط الضجيج، لأتفاجأ في لحظة... ما هذا؟!

اللعين نفسه في محطة القطار، رأيته، كيف وجدني؟!

لماذا يستمر في ملاحقتي؟ ماذا أفعل الآن؟ يتبعني، لا، لم يكن يريد قتلي، لو أراد ذلك لفعل، هو لا يريد القبض عليَّ، هو فقد يتعقبني.

"لحساب من يعمل؟ هل هو أحد رجال يوسف عز؟ "

توقفت للحظات، حاولت التأكد أنه يتعقبني فقط أم يريد اعتراض طريقي؟ هو فقط كان يكتفي بمراقبتي كما توقعت، كان لا بد من أن أتمالك نفسي وأحاول التصرُّف بسرعة، كان عليَّ الإمساك به ومواجهته، سيكون ذلك أفضل، قد أجد بعض الإجابات، أفضل من مواصلة الهرب منه.

"لو أراد الإمساك بي أو إلحاق الضرر لفعل حقًّا".

قررت مباغتته وبمجرد أن التفتُّ كان ذلك الوغد قد اختفى، ربما شعر أني أريد الإمساك به، فاختفى!

ما الذي حدث؟ عقلي يلاعبني... هل هو من وحي خيالي؟ ربما أشعر بالخوف، لكني كنت متأكدًا أنه الشخص نفسه، الملابس ذاتها، ملامحه غير واضحة، لم أستطع رؤية وجهه، لكنني واثق أني لا أتخيل!

آخر ما ينقصني أن يكون عقلي ضدي، يكفي ما أعانيه.

إلى أين الآن مراد؟

تواردت الأفكار إلى ذهني، لكن عقلي كان مشوشًا، كلمات الحكيم تدور في رأسي، وذكرى ليلى لا تفارقني، حنين لا يمكنني وصفه، غير أن روحي تتوق للقائها، لكن جسدي يمنعني... أين أنت يا ليلى؟

"كوب من القهوة سيجعلني أشعر ببعض الهدوء حتى أستطيع التفكير جيدًا".

دخلت أحد المقاهي بجوار المتنزه، وجلست أسترق بعض الراحة، بعد ما أصابني بسبب ذلك الشخص الغريب الذي يلاحقني، وقبل أن أطلب شيئًا إذا بالدكتور زهير يتصل بي:

"مرحبًا د. زهير، أنسيت شيئًا ما؟".

"بل تذكرت وأنا في طريقي للعودة. كان التفكير في حالتك يشغلني، ولكن تذكرت اسمًا ما...".

"حسنًا هذا جيد، أخبرني".

"بيير، سمِعتك تردد ذلك الاسم أكثر من مرة، سيد مراد دائمًا ما كنت تراجعني كل شهر بما يتعلق بالتمويل الخاص بمركز الأبحاث، كنت تحرص دائمًا على التأكد أن التمويل يصل المركز شهريًّا، كنت تفعل ذلك وبرفقتك أحد ما، سألته أكثر من مرة، (تحويل بيير وصل؟ تأكد منه)، أعتقد أنك ترسل إليه المال، هذا ما أعرفه فقط.

ابحث عن صاحب الاسم ربما يساعدك، آسف لكن ذلك ما تذكرته وتردد في ذهني".

"لا عليك، شكرًا د. زهير، إذا تذكرت أي شيء آخر أرجوك لا تتردد، فقط كلمني فورًا".

"بالتأكيد، إلى اللقاء".

الاسم بيير لا يبدو غريبًا، بدا مألوفًا، لكن ما زلت غير قادر على تذكُّر التفاصيل، كيف أصل لبيير هذا؟

الفصل الخامس

"حسنًا مراد، من بيير هذا أيضًا؟ كيف أصل إليه؟".

تواردت الأفكار مجددًا، لم تتوقف، كان عقلي مشتتًا لأقصى درجة، كان تفكيري كله أن أصل إلى أي شيء يساعدني على التذكُّر، يجب أن أجد ذلك الشخص، لم تكن الأرقام على هاتفي مسجلة، ما جعل عملية البحث عن بيير شبه مستحيلة أمامي.

"ماذا أصنع؟"

كنت متأكدًا أن هناك طريقة ما لحل تلك المشكلة، وسط الحيرة التي تملكتني، بدأت في التفكير مترنحًا بين ذهني وقلبي، حاولت العثور على بيير واسترجاع تلك الذكريات الضائعة من حياتي.

"كيف يمكنني العثور عليه؟ أين يمكن أن يكون؟"

الأرقام على هاتفي قد تحوي الكثير، ذلك سيساعدني بالتأكيد... "قد يكون بيير أحد أصحاب تلك الأرقام، لكن كيف؟".

سألت أحدهم بالمقهى أجابني بتعجب واستغراب، وكأن سؤالي لا محل له من الإعراب:

"الأمر بسيط جدًّا، أحد التطبيقات على الهاتف، فقط دوِّن الأرقام عليه وسيُظهر لك أسماء أصحابها فورًا".

شكرته، كان الأمر بسيطًا جدًّا، ربما ساعدني ذلك من قبل، لكنني لم أكن أعرف إمكانية حدوث شيء كهذا، بعض الأمور رغم تعقيدها قد تكون لها حلول أسهل ممَّا نتخيل.

بالفعل بدأت بتدوين الأرقام من ثمَّ بدأت الأسماء بالظهور، كنت أكثر اهتمامًا باسم بيير، وبعد عدة محاولات توصلت إلى رقمه بالفعل.

في تلك اللحظات وبينما أتصل به، شعرت بالتوتر والفضول، تنفست بعمق قبل أن أضغط رمز الاتصال، وانتظرت بفارغ الصبر حتى أتلقى الرد.

عبر الهاتف، تحدثت بصوت هادئ ومتردد:

"بيير؟".

"مساء شريف سيد مراد، كيف حالك؟".

"بخير، أريد الالتقاء بك".

"بالطبع، أترغب في اصطحاب الأولاد إلى مكان ما؟ أم ستشرفنا بمجيئك؟".

كانت كلمات بيير صاعقة، كنت أتمنى أن أجد أسرة أرتمي في أحضانها، فها هو يُفصح عن أكبر الأسرار في حياتي... "ماذا يقول؟ الأولاد!".

"أبنائي أم ماذا؟ لماذا هم مع ذلك المدعو بيير؟! ما القصة؟ قلبي يتراقص، يهتز، يكاد يخرج من بين أضلاعي".

لحظات من الصمت والتعجب منعتني أن أجيبه فقال:

"سيدي... أتسمعني؟".

"أسمعك".

الواقع بدأ يكشف نفسه، قلت له:

"كيف أصل إليك؟".

"نحن بالمنزل، هل أخبرهم أنك قادم للزيارة؟".

"فقط أعطني العنوان، سأصل سريعًا".

"كيف لا تعرف العنوان؟!".

"بيير... أرسله الآن على الهاتف".

"حسنًا سيدي، أنت بخير؟ هناك شيء ما؟".

"نتحدث حين أصل، إلى اللقاء".

"فهمت سيد مراد، إلى اللقاء".

لقد كانت شكوكي في محلها، أحسست أن لي ذرية، لديَّ أطفال، (الأولاد)، هكذا قالها بيير، فرحتي بهم لم تكن توصف، كنت أنتمي إلى أسرة.

بيير كان يعتني بأطفالي لذلك أرسل له المال، الأسئلة المهمة التي اقتحمت عقلي: "لماذا لا يقيمون معي؟ أين زوجتي ليلى؟ هل سأتذكرهم عندما أراهم؟

هل سيكون لقاؤنا سببًا في عودة ذاكرتي المفقودة؟

هل سيخبرني بيير بالحقيقة؟ هل أخبره بما أصابني؟ هل أصارحه كما صارحت د. زهير بما أصابني؟

تذكرت مشاعر العجوز زوجة خالد، في تلك اللحظات عرفت جيدًا ما كانت تشعر به، شاركتهما المشاعر نفسها، شعور بالسعادة اعتراني، كنت متشوقًا لرؤيتهم جدًّا.

طلبت السائق وانطلقت نحو منزل بيير على العنوان الذي أرسله، لم يشغل بالي أي شيء سوى لقاء أولادي، رأيتهم في ذكرى الجنازة، كنت متأكدًا أنهم أولادي، ليلى كانت تقف حاملة الرضيع والطفل بجوارها، كانت الذكرى حقيقية لم تكن من خيالي.

فور وصولي العنوان خرجت من السيارة مسرعًا نحو المنزل، كان منزلًا كبيرًا بمساحة خضراء، يبدو أنني كنت أهتم بأبنائي جيدًا، بالتأكيد كنت خائفًا عليهم من الظلام الذي كنت منغمسًا به.

بيير استقبلني أمام المنزل، كان أول ما نطقت به:

- "أين الأولاد؟ أريد أن أراهم الآن بيير".
- "بالطبع سيدي، هم في الداخل".

"ما يفعله مراد غريب جدًّا، لطالما تهرَّب من رؤيتهم كثيرًا، بل يكاد لا يراهم إلا مرات قليلة، الآن يتصرف بطريقة لم أعهدها، ذلك ليس مراد توفيق الذي أعرفه، هناك خطب ما!".

"تفضل سيدي، سأحضرهم".

خرج بيير مصطحبًا الأولاد من غرفهم، ولد كبير وأخته طفلة جميلة رقيقة، دمعت عينايَّ من حلاوة اللقاء، احتضنتهما وقبَّلت رأسيهما وأياديهما كما فعلت العجوز معي... الآن أدركت لماذا فعلت ذلك، لم أستطع منع نفسي، جربت مشاعرها لأول مرة منذ أدركت وجودي، يا لها من مشاعر وأحاسيس عبرت خلالي.

بقي الطفلان صامتين ولم يعلقا بكلمة، بل بدا عليهما الاستغراب والخوف!

ألم يتعرفا إليَّ!

كانت تلك اللحظة أشد قسوة من أي شيء واجهته قبل ذلك، كأن قلبي قد تحطم، لم أكن أتوقع ذلك منهما، ارتسمت ملامح الحزن على وجهي، تغيرت وكأني كبرت ألف عام، لم آتِ حتى أواجه ذلك الجفاء والجمود منهما.

لاحظ بيير ما حلَّ بي فقال:

"سيدي هناك خطب ما بك؟ لست على ما يرام، اسمح لي بإدخال الأطفال ولنجلس معًا حتى أوضح لك بعض الأمور".

لم أستطع الإجابة، كانت الصدمة عالقة بحلقي، فلم أستطع الكلام، فقط أومأت برأسي.

"أيها الأولاد هيا إلى غرفكما، وسأعود لكما بعد قليل".

جلس أمامي ورفع نظارته إلى أعلى ثم نظر لي متفحصًا بدقة، وبصوت خافت قال:

"سيدي لقد توقفت عن رعايتهما منذ سنوات، لم يقابلاك منذ مدة، لماذا كل الاهتمام الغريب بالأولاد فجأة؟ إنه على غير عادتك، أنت لا تتذكر شيئًا!".

بحزن شديد وصوت يكاد لا يُسمع سألته:

"أهم أولادي؟!".

أجابني:

"سيدي لمَ تقول ذلك؟ منذ سنوات وأنت تتلاشى لقاءهما أو حتى رؤيتهما، وتؤكد عليَّ دومًا أن أشرح لهما أنك ترعاهما فقط، وأنك لست والدهما".

كانت كلمات بيير أكثر غموضًا وأسى... ما الذي يقوله؟!

"أعلم جيدًا من دون أن تشرح أي تفاصيل، هناك خطب ما بك، تبدو شخصًا مختلفًا تمامًا، أنا أعرفك جيدًا سيدي، لستُ بغريب عنك... فقط اهدأ، سأشرح كل شيء وأريدك أن تثق بي، فما سأقوله الآن ربما سيكون من الصعب تصديقه".

قلت له نفذ الصبر: "تحدث، أنا لا أطيق الألاعيب، ماذا تخفي؟ تكلم الآن".

"قد لا تتذكر شيئًا، لكن أنت مراد توفيق، هذان الطفلان بالداخل آخر ما بقي من نسل هشام توفيق، تتذكر ذلك الاسم؟".

"نحمل اللقب نفسه، توفيق".

"نعم سيدي، زوجتك زينة بنت هشام توفيق، أم الأطفال".

زينة هشام توفيق! من تكون ليلى إذن؟

كيف لي أن أتذكر ليلى من دون أي شخص آخر؟!

أصبحت الأمور أكثر تعقيدًا ولغز جديد هو ليلى.

"أكمل".

"أحاول أن أنعش ذاكرتك قليلًا، ربما تبدأ الذاكرة بالعودة شيئًا فشيئًا".

"أين هي زوجتي؟".

"سيدي بعض الأشياء قد لا أكون قادرًا على طرحها، بعض الأشياء من الأفضل أن تظل قيد الكتمان".

"اسمع، سأكون واضحًا معك، أنت لا تعلم ماذا سأصنع بك إن لم تتحدث وتُطلعني على كل شيء".

"ربما لا أعلم حقًّا، لكن أنا متأكد ماذا سيحدث إن تحدثت سيدي، لا أريد أن تسوء الأمور أكثر، وأنا أكثر نفعًا وأنا على قيد الحياة".

"من سيؤذيك إذا تكلمت؟".

علت وجهه ابتسامة غامضة وقال: "أنت سيدي، بمجرد أن تعود إليك ذاكرتك ستقتلني لأنك تعلم أني تحدثت وبُحت بالسر، ربما أنت لا تعرف أي الرجال تكون، لكن أنا أعلم جيدًا مَن مراد توفيق".

"أنت على وشك أن تُخرج ذلك الشخص ليفعل بك ذلك الآن... تحدث". وأمسكت به بكلتا قبضتيَّ، كنت على وشك الانفجار، فقال:

"تمهَّل سيدي، الأطفال، لا أريدك أن تظهر بهذا الشكل أمامهما، أقسمت لك بألا أبوح بالسر، ولا يمكن أن أخاطر بقَسَم أمام مراد توفيق، سيكلفني ذلك الكثير، ولكني أعتقد أن هناك حلًّا لتلك المشكلة، القصر... قصر هشام توفيق، قصرك المهجور".

"ما الذي تقوله؟ قصر من؟ كيف لذلك المكان أن يساعدني في تذكُّر أي شيء؟".

"سيدي لقد كنت رئيسًا للخدم بقصر هشام توفيق، عُد إلى القصر وستدرك كل شيء، لقد هجرناه منذ سنوات، وأقسمت لك بحياتي بألا أتحدث عن شيء وأن ألتزم برعاية الطفلين، نفَّذت كل ما طلبته، وكل ما أطلبه منك العودة، ثق بي، انطلق نحو القصر، أنت تملك مفاتيحه، كنت قد جمعتها لك حينها".

"نعم أتذكر تلك السلسلة من المفاتيح، إنها بحوزتي".

"سيدي توجه نحو القصر بالتلِّ الكبير، اِبحث عن غرفتك حيث تحتفظ بالكثير في تلك الغرفة، أعتقد أنك حينها سوف تتذكر كل شيء، أرجوك... لا أستطيع البوح بأي شيء آخر، تأكد أني حريص على الأطفال وأني لأن أبوح بشيء على الإطلاق".

"إذا لم أعثر على أي شيء أو لم يُرضني ما سأجده، سأعود إليك، وتأكد... لن يعجبك ذلك أبدًا".

"أعلم تمامًا سيدي، أنت مراد توفيق".

****

لم أستطع إدراك ما يحدث، كيف لي أن أكون بتلك القسوة؟

أترك أولادي وأهجرهم، لم يعرفاني، بل كنت أسعى كي لا يكون لهم ماضٍ، لا إرث ولا والد، أين زوجتي؟ ومن ليلى التي أتذكر اسمها، وأتذكر شوقي لها.

لا شيء سوى بيير يرعاهما؟

ما تلك القسوة وذلك الشر يا مراد! كيف لي أن أكون ذلك الشخص؟

كم هو مظلم وقاسٍ القلب، بل منعدم الإنسانية، ما الذي حدث لك يا مراد حتى تكون بذلك القبح والظلام، كيف لي أن أكون ذلك اللعين؟

القصر... ما الذي سأجده هناك؟

لماذا هجرته؟

الآن وقد تركت بيير خلفي، أنا مراد توفيق، كان عليَّ الذهاب للقصر حتى أستطيع التذكر كما وعدني، ذلك المكان يحوي أكبر أسراري، بعد أن أمرت أن يهجره الجميع ها أنا عائد إليه مرة أخرى.

أحد الأشياء التي لم أكن قادرًا على تحمُّلها أو فهمها إحساسي بالغضب الذي بدأ يتطور، ذلك الإحساس الغريب منذ استيقاظي فاقدًا الذاكرة وحتى الآن، كل ما اكتشفته مدعاة للغضب، لم أعد قادرًا على تحمُّل المزيد

الصورة التي جعلني بيير أراها عن نفسي لم أكن لأتخيلها من دون أن يُصرح بشيء، بيير جعلني أستشعر مدى القبح والظلام الذي أحاط بي قبل أن أفقد الذاكرة، كونه خائفًا إلى تلك الدرجة، يخاف من رجلٍ يحاول التذكُّر، يخاف من رجل في عداد الموتى، فالذكريات هي من يكوِّن ذواتنا، أحلامنا وطموحاتنا.

كانت الخيوط الدقيقة لتفكيك ذاكرتي تبدأ بالتجمُّع، لكنها كانت تتسارع مع كل تفاصيل أكتشفها، في لحظة ما بين وهم الذاكرة المفقودة وصراع القبح الذي أعانيه، أدركت أني حملت في داخلي غضبًا لا يمكن تحمُّله.

كانت تلك الصورة الجديدة تتناقض بشكل صارخ مع الذكريات التي كنت أحتضنها في الماضي، خيبة الأمل والغضب أحاطا بي، وكل تفاصيل الحقيقة تتسلل إلى وعيي. شعرت بالقلق يسري في عروقي، فمن ذلك الرجل الذي يظهر في المرآة ويبدو كأنه قادم من كوابيس مظلمة؟

كنت أكتشف تدريجيًّا مزيدًا من الحقائق، هل يمكن للإنسان أن يحمل ذلك القدر من الظلم والقبح؟

كنت أشعر بتمزُّق في روحي، فالذاكرة العائدة لا تجلب معها الألم فحسب، وإنما أيضًا مواجهة مع رجلٌ لا يعرف نفسه، يخوض صراعًا مع الماضي ومع نفسه، في سعيه بين الماضي الأليم والحاضر المبهم.

ألم يرَ مراد توفيق ذلك الظلام بداخله؟

بماذا كان يشعر؟

أنا الشخص نفسه ولكن من دون ذاكرة، هل كان مراد توفيق بذاكرته يرى نفسه كما أراها الآن؟ أم أن للذكريات ما يجعل لمراد بأفعاله مبررات كي لا يعترف ويشعر بذلك القبح؟ أوشك عقلي على الانفجار... كنت أواجه لحظات حاسمة، حيث تتقاطع حياتي مع ذاكرتي المفقودة.

وبينما كنت أنظر إلى الرجل الذي تعكس المرآة صورته، شعرت بتشوُّش في مشاعري وتناقض في أفكاري، قد تكون الذاكرة واحدة من أكبر اللغات التي تتحدث بها الأفعال والأحداث، ولكن في تلك اللحظات، ومع كل تفاصيل الظلام والقبح التي تبرز، كنت أتساءل إذا كنت أستطيع بالفعل رؤية نفسي بذلك الضوء.

قد تكون الذاكرة أحيانًا مُكملة للوحدة، وقد يبرر الإنسان أفعاله بناءً على ذكرياته هو، تلك التي يحملها، فهل كان مراد يعيش حالة من الإنكار أو الهروب من واقعه؟

هل كنت أخفي خلف ذاكرتي المفقودة مبررات لأفعالي السابقة؟ أم كنت أعيش في حيرة وصدمة من مفاجأة حقيقتي الحالية؟

كانت تلك التساؤلات ترتسم على وجهي، وكأني أواجه ذاتي بشكل مكثف، هل سأكون قادرًا على مواجهة تلك الحقائق والقبح الذي أكتشفه في داخلي، أم سأستمر في البحث عن مبررات تخفف من وطأة ذلك الواقع المروع؟

أكثر ما كان يشغلي حقًّا كيف لهذين الشخصين أن يجتمعا في كيان واحد اسمه مراد توفيق؟

أنا لم أستيقظ لأولد بذات جديدة، ولكن تلك الذات التي تركها مراد توفيق لتبحث عن ماضيه.

كنت أتساءل بقلق عميق حول كيفية توحيدهما في كيان واحد يحمل اسمي، كان يشغلني الاعتراف بالقبح والظلام الذي كان يختبئ في أعماقي، وكيف يمكنني أن أكون ذلك الرجل الجديد، الذي ينبعث منه الغضب والخوف، جزءًا من هويتي؟

كنت أشعر بالحاجة المُلحَّة إلى فهم كيف سأستمر في الحياة بذلك الشكل المنقسم، كيف يمكن للذاكرة المفقودة والماضي الذي تركه أن يتلاقى مع الحاضر الذي أواجهه، كنت أتساءل إذا كان بإمكاني أن أقبل ذلك الجانب الجديد من ذاتي، أم سأظل أبحث عن هويتي الحقيقية في أحلامي وذكرياتي المتبقية؟

كنت في مواجهة داخلية مع نفسي، فقد كنت أحاول فهم كيف يمكن أن أواصل العيش بعد أن اكتشفت جوانب مظلمة في ذاتي، هل سأجمع بين الماضي والحاضر، أم أترك كل جزء مني ليبحث عن مكانه في الحياة بعيدًا عن الذكريات والألغاز التي أحاطت بي؟

كانت تلك التساؤلات تحاصرني، ما جعل رحلتي إلى العثور على هويتي تبدو أكثر تعقيدًا، عدت مجددًا أحمل المفاتيح التي قد وجدتها معي في الفيلا ومعها توجيهات بيير بالعودة إلى القصر، حيث بداية كل شيء.

استأجرت سيارة وتوجهت نحو القصر، وأنا في طريقي كان عقلي يعمل بلا كلل أو ملل، يفكر في كل شيء حدث معي منذ بدأت رحلة البحث عن مراد توفيق، كل ما رأيته ومررت به كان خانقًا ومريبًا، حتى أبنائي لم أنعم بحبهم.

ماذا سأجد بالقصر؟ هل سيجعلني ذلك أنعم بقليل من الهدوء والراحة، أم أنه فصل جديد من المعاناة؟

وسط همس الرياح والظلام الذي يلف القصر، توقفت السيارة أمام أبوابه الضخمة، كانت المفاتيح ترنو إلى يدي، تحمل معها رسائل من الغموض والتحدي، وبينما أفتح الباب انبعثت رائحة العتمة والتاريخ، وكأن القصر يستعيد حياة جديدة بوجودي.

وفي أثناء حركتي في أروقة القصر الباردة، كانت ذكريات ضائعة تتسلل إلى وعيي، واجهت مشاعر متضاربة من التوتر والفضول حِيال ما قد أجده، وما زالت التساؤلات... هل ستكون هذه العودة إلى القصر بمنزلة باب للسلام والراحة، أم مزيد من الأسرار والمعاناة؟

بين أركان القصر الذي يبدو أكثر من مجرد مبنى، بدأت ذكريات مراد توفيق بالتسلل إليَّ ببطء، كان ذلك القصر منزلي، حيث أعيش تحت رعاية الرجل الغامض هشام توفيق، الذي نتشارك أنا وهو اللقب نفسه، وربما أشياء أخرى.

كانت قاعات القصر تروي قصة العائلة الثرية والسلطة التي استمدتها، وكذلك الأسرار التي تختبئ في زواياه، في ذلك المكان الذي بدأت فيه صفقة مراد مع الشيطان نفسه، كان كل شيء يبدو مثل جزء من مسرحية درامية، حيث تقاطع الماضي والحاضر بشكل معقد.

وقفت أمام أروقة القصر حاملًا معي تاريخًا معقدًا وصفقة قديمة، كانت ذكرياته تختلط مع أصداء الاتفاق الذي أبرمته في ذلك المكان، بدأت أتذكر اللحظات التي قررت فيها أن أمضي في طريق الظلام، وكيف تغيرت حياتي بشكل لا يمكن فهمه.

بدأت أتجول في البهو الكبير بالأسفل والأثاث الملكي الراقي، كان ذلك القصر ينعم بالحياة، لكن جدرانه ولوحاته وزواياه العجيبة كانت تعكس وجهًا آخر، وقصة أخرى لماضٍ أليم أسود، مثل ظلمة الليلة التي زُرت فيها ذاك القصر.

وكأنني أعيش في عالمين متناقضين، البهو الكبير والأثاث الملكي يرويان قصة حياة ترف ورفاهية، في حين تحمل جدران القصر ولوحاته جوانب مظلمة وحكايات مأساوية.

تسللت الألوان الداكنة والتفاصيل الغامضة إلى كل زواياه، مُعبرة عن ماضٍ مليء بالأسرار والظلام.

في كل خطوة يزداد التوتر والتساؤل حول ماضٍ قد يكون مليئًا بالألغاز والأحداث الغامضة، إن كشف الستار عن تلك الحكايات المدفونة في أعماق القصر قد يكون محور الرحلة التي بدأتها للبحث عن الماضي والهوية المفقودة.

في أثناء بحثي بين أروقة ذلك القصر وغرفه أحسست بشيء ما يقودني نحو الدور العلوي، وكأن شيئًا ما يسحبني تجاه غرفة بعينها، غرفة مُحكمة الغلق، شيئًا ما يدفعني لأدخل تلك الغرفة، يدفعني بشدة لاكتشافها.

أمسكت المفاتيح لأجرب أيها يفتح قفل ذلك اللغز، وإذا بالباب العتيق يُفتح لأجد غرفتي، إنها مكتبي الخاص، كنت أعرف تلك الغرفة جيدًا، يومًا ما فيما مضى كانت ملجئي وعنواني، تلك الغرفة تحوي في طياتها حياة مراد توفيق، وهي الغرفة التي كان يقصدها بيير عندما قال إنني سأجد الحل لما أنا غارق فيه.

في الغرفة الضاربة باللون الأحمر الداكن، تسلل الضوء الخافت عبر فتحات الستائر الملفوفة، ملوِّنًا أركان المكتب الفاخر والأثاث التاريخي، يحمل المكتب بصمات زمنية تروي قصة طويلة من الأحداث، تنثر الألوان السوداء والحمراء عبقًا مأساويًّا، كألوان فنجان يحمل مرارة القهوة.

وبينما أنظر إلى صور العائلة المعلقة، تملَّكني شعور بالتقاطع بين الماضي والحاضر، مضيفًا إلى الغرفة أجواءً ساحرة من التأمل والغموض، تجلت تلك الغرفة مثل مسرح للدراما والإثارة، حيث تلتقي الروحانيات والظلمات في رقصة لا تُنسى، فلم تكن مجرد غرفة، بل كانت عالمًا مليئًا بالأسرار، وأسعى لكشف لغز هويتي الضائعة وسط ذلك السياق المدهش.

جلست على الكرسي خلف المكتب في محاولة مني لاسترجاع لحظات من الماضي، وفجأه بدأت ذاكرتي باسترجاع آخر ما أصدرته من قرارات هجرة للقصر، بدا لي المشهد واقعيًّا وكأنما أرى الماضي من خلال عينيَّ.

شاهدت بيير وهو يقدم لي مفاتيح القصر وآخر كتاباتي، وقد سطرتها في مذكرة ووضعتها بالخزنة أسفل المكتب وأغلقت عليها، ذاكرتي نبهتني إلى مكان المذكرة، هي إرث خاص كنت قد أغلقت صفحاته ووضعته طي النسيان، ولكن الضرورة اقتضت أن أعيد فتحه مرة أخرى.

فجأة استيقظت من ذلك المَسِّ الغريب لأفتح الخزنة، وأخرج ما كنت أبحث عنه، فتحت المذكرة لأكتشف أن الإرث هو مذكرات هشام توفيق نفسه، والد زينة زوجتي، وسيد هذا القصر.

قرأتها بعناية، كل كلمة كانت مثل نقاط ضوء تتسلل إلى تلك الظلمة العميقة في عقلي، وفي تلك الصفحات اكتشفت أن ما كنت أفتقده ليس فقط جزءًا من حياتي، بل هو رابط قديم، تمتد جذوره في القصر نفسه، الذي يحمل أسرارًا لم أكن أعلم بوجودها.

القدر قدم لي تفاصيل لم أكن أعرفها من قبل، وأصبح الارتباط بين الأحداث القديمة واضحًا أمامي، أصبحت المذكرات جسرًا زمنيًّا يربط بين ماضٍ وحاضر.

يروي هشام القصة في مذكراته كالآتي: إنه اليوم الأول لذلك الشاب في القصر، موعد رحيلي عن هذا العالم يقترب ولم أجد سبيلًا حتى يبقى هذا الإرث العظيم سوى أن أنتشل ذلك الشاب من أعقاب الموت، وأصنع لنفسي "هشام توفيق"، السلالة التي أستحق.

بيير ساعدني كثيرًا خلال الأعوام التي مضت، وهو يعرف جيدًا حاجتي إلى مثل ذلك الشخص، سأسميه "مراد"، وليحمل لقب عائلتي، مراد توفيق، كل ما عليَّ الآن أن أصنع خليفتي، ذلك ما يضمن لي تواصل هذا الإرث العظيم.

في صفحات المذكرات ينبض الزمن بأسراره وتحولاته، ويروي هشام توفيق قصة اللحظة التاريخية التي قرر فيها ترك بصمته الخالدة في قصره العريق: "اليوم والتاريخ يشهدان على البداية الجديدة، يوم رحيلي عن ذلك العالم، ولكن ليظل إرثي العظيم حيًّا".

وهكذا أطلق هشام اسم "مراد توفيق" عليَّ، اختار لي لقبًا يحمل ثِقل التاريخ والتراث، أصبح مراد وريثًا يحمل في قلبه تكليفًا كبيرًا، ومهمة لاستمرار قصره وعائلته.

كان الأعداء يتربصون به، ولذلك كان عليه أن يصنع وحشًا لا إنسانًا، ليحمل إرث تلك العائلة، كنت حقل تجارب هشام توفيق، لم يرد أي ذكر لماضيَّ قبل أن أصبح مراد توفيق، ولكن ما صنعه هشام توفيق كان مظلمًا للغاية، فقد صنع وحشًا من أشلاء إنسان، يقف على أعتاب بوابة الموت، نعم، هكذا صنع مراد توفيق.

يحكي هشام توفيق كيف انتحرت زوجته، لم تحتمل ممارسات هشام وحقيقته السوداوية المظلمة التي فتحت أبواب الجحيم مُرحبة بالشيطان، بعد أن ضحَّى بأخت زينة، كان ذلك عهد الدم والظلام، لتكون شراكة جديدة بينهما، تاركًا طفلة صغيرة وحيدة هي زينة، ابنة هشام توفيق التي لم يتركها خلفه وحيدة، فقرر أن تعاني كما عانت أمها ولكن بين أحضان وحش آخر، هو مراد توفيق.

تزوجتُها لأُتِمَّ مراسم التتويج وأبرم عقدي الجديد مع الشيطان، وأعلن حقبة جديدة لتاريخ عائلة توفيق المظلمة.

في الأعماق المظلمة لتاريخ عائلة توفيق، كشف هشام عن جوانبه السوداوية والشيطانية التي غمرت حياته وحياة زوجته، كشفت مذكراته عن مأساة مُحزنة.

تنتهي كتابات هشام توفيق في المذكرة مع انتهائه، فقد فتك المرض به، لكن ليس قبل أن يترك خلفه إرثًا أكثر إظلامًا، فقد ترك تجلي الشيطان نفسه في عالم البشر، مراد توفيق، الذي أبرم عقد الدم والظلام، والذي أعاد الأمجاد للجماعة السريَّة التي وضع بذرتها هشام توفيق نفسه.

ولكنني كنت من أقدم على تعزيزها ودمجها في المجتمع لتزدهر وتصبح أكثر فتكًا وبطشًا، وتصير بوابة لكل المتعطشين للدماء والملذات من رعايا الشيطان.

بين صفحات المذكرات وآخر أنفاس هشام توفيق تُكمل قصة الظلام والشياطين، انطلقتُ أنا مراد توفيق، الوحش الذي صنعه هشام، لأكمل رحلة الظلام والشر.

بعد رحيل هشام أصبحت قائدًا للجماعة السرية التي بناها، فتحت بوابة الظلام بشكل أوسع، قدتُ تلك الجماعة إلى تفجير الظلام والرعب في المجتمع، وتحولوا إلى وكلاء الشيطان في عالم البشر.

أصبح أفراد الجماعة بوابة لكل متعطشي الشر، إذ يلجأ البشر إليها لتحقيق شهواتهم الدموية والمظلمة، تتفتح زهور الظلام وتزهر، وكل أتباعي يعيشون كالرهبان في دير الشياطين.

وهكذا اكتمل دوري في ترسيخ الظلام، وتترك مذكرات هشام توفيق خلفها أثرًا غامضًا من الظلام الذي يعلو في عالم البشر، حيث يتلاقى الشيطان والإنسان.

السر الذي لم يستطع بيير البوح به أنني قتلت زينة، ما عاصرَته كان أكبر من أن يتحمله إنسان، فما رأته من هشام توفيق وهي في ريعان الطفولة المظلمة التي اقترنت مع خطوات الشيطان، وتلتها الحياة البائسة حين أودعتها الأقدار المظلمة للعيش تحت جناح مراد توفيق، ما جعلها تبحث عن مخرج أو أي شيء يُشعرها ببراءة الحياة، ما كان منها سوى أن تنعم بحياة خفية مع عاشق مغمور، وكانت نتيجة تلك الحياة نسله لا نسل مراد توفيق.

قتلتها لأني لم أحتمل أن تظهر تلك السقطة للعلن، ينبغي ألا تشوَّه سطوة مراد توفيق بتلك الطريقة، قتلتها، جعلتها تفعل كما فعلت والدتها، ثلاثتهم كانوا ضحايا الشيطان.

وكان بيير شاهدًا على أفعالي كما كان شاهدًا على أفعالها، كان الغضب والظلام يغمرانني، بات من الضروري أن أغلق تلك الصفحة وأهجر ذلك القصر، فلا شيء من إرث هشام توفيق تبقى، لقد صنعتُ إرثًا جديدًا ومملكة لم ينبغِ لها أن تُقام على أنقاض أخرى.

كلَّفت بيير برعاية الأطفال، لم أكن بحاجة إلى ما يلهيني أو يعوق طريقي الجديد، وأمرت أن يغلق القصر ويُهجر، انطلقت باحثًا عن أرض جديدة لألوِّثها بظلامي وبطشي، أنا مراد توفيق، كانت تلك آخر كلمات سطرتها في مذكرات الشيطان وأحكمت إغلاقها وغادرت تاركًا خلفي ذلك السر المظلم.

الظلام قد بلغ ذروته، زينة دفعت الثمن باهظًا لرحيلها على يد الشر الذي استحوذ على حياتها، تبقى أسرارٌ غامضة وحقائقٌ مظلمة لم يكن بيير قادرًا على كشفها، ولكنه كان شاهدًا على الجرائم والأحداث الشيطانية.

تترك وراءها قلبًا مظلمًا وروحًا محطمة، روح مراد توفيق.

غادرت القصر، وبيير نفَّذ أوامري، ليكون القصر مقبرة لأسرار هشام توفيق وأسراري، ولكن يظل السر الأكثر ظلمة مختومًا في ذاكرة بيير، الذي كان على دراية بالوحشية والظلم الذي حدث في أروقة القصر.

عينايَ تقطران، وانهمرت الدموع ساقطة على الأوراق، كنت أتألم، لقد مزقت تلك الكلمات التي قرأتها روابط الإنسانية بداخلي... كيف أمكن أن أكون بهذا الظلام! هل كنت ضحية أفعال هشام توفيق؟

ولكن أي ضحية هذه التي ترتكب تلك الجرائم؟

لم أجد مبررًا واحدًا لما اقترفته أو صنعته يداي، أقف أمام مرآة لأرى تفاصيل وجهي وشكلي الذي أصبح غريبًا بعد أن اطَّلعت على ما في تلك المذكرات اللعينة، وكأنها أعادت سريان دماء مراد توفيق في عروقي، كنت غاضبًا لأني لا أتذكر شيئًا، غاضبًا لأني أحسست أني غريب عن ذلك العالم، غاضبًا لأني تذكرت بعضًا ممَّا مضى فقط، أنا غاضب لأني حاولت التذكُّر... نتمنى الكثير من الأشياء في حياتنا، ولكن قد تختلف الأمور كثيرًا عندما تتحقق، ونعود لنرجو لو أنها ظلت مجرد أمنيات.

في لحظات التفكير العميق، عصفت الحيرة بروحي واحتضن الألم قلبي احتضانًا، والدموع تتساقط. تستجمع عيناي الألم والصدمة معًا، أتساءل عن مدى قوة الظلام، وما قد صنعته، كلاهما ترك أثرًا ثقيلًا في قلبي، كيف سأكون بعد أن عرفت السر؟

كنت غاضبًا وحانقًا على ماضٍ لم أعشه، لكنه نُسب لي، كنت أكره تلك اللحظات التي جعلتني أُقدِم على البحث عن ماضي شخص لا أعرفه، ليتني لم أبحث ولم أجد ما يساعدني.

أصبحت حائرًا أكثر ممَّا مضى، وبدأت أفهم الكثير من الأمور، بدأت أعرف لماذا كان يعاملني بيير بهذا القدر من الرعب والخشية، يوسف عز كذلك، كلهم كانوا على علم بمدى قبح وظلمة مراد توفيق، لكن أنا لم أعرف، لم أكن لأصدق شيئًا من هذا.

الآن فصل جديد... مَن كنت قبل أن أصبح ذلك اللعين مراد توفيق؟ هذا كل ما كان يشغل تفكيري، كان لا بد من شيء ما أجده ليساعدني.

الأمل والغضب هما ما أستطيع أن أفسر به وقع المشاعر التي اعترتني.

كنت غاضبًا من مراد توفيق وكل ما فعل، لأنه حمَّلني أعباء كل ما اقترفته يداه، كانت حالة من إنكار الذات، فأنا لم أقبل أن يكون ذلك هو إرثي، والأمل كان أن أجد ليلى، فمجرد نطقي اسمها حرَّك شيئًا ما بداخلي، وكأن قلبي من بدأ يتذكر لا عقلي.

قد تكون ليلى هي مخرجي لأتخلص من كل تلك الآلام، ملاذي الوحيد للراحة، منذ أيام كثيرة مضت لم أكن أملك شيئًا لأخسره، والآن كل ما أملكه أود حقًّا أن أخسره، كان اسم ليلى ضوءًا لنجم في سماء مقفرة مظلمة، كان عليَّ أن أتبع ذلك الضوء لعله ينجيني من ذلك الذي يسري في عروقي.

الفصل السادس

في تلك الخزنة الحديدية الصدئة بجوار المكتب، بدأت تقليب الأشياء داخلها غير مبالٍ أو مكترث بعينين شاردتين تبحثان في الأفق عن بريق أمل مفقود، ما الذي سأجده مؤلمًا أكثر ممَّا وجدته في تلك المذكرات اللعينة.

فاقدًا الأمل والرغبة في الحياة نفسها، وجدت صورة مهترئة وقديمة كأن الدهر كله مر من هناك، لم تكن ملامح السيدة بالصورة واضحة، لكن آيات السعادة والفرحة ظاهرة على وجهي القديم بقوة وأنا أنظر إليها، بالتأكيد تلك ليلى، لكن ما الذي حدث لأتركها وأترك خلفها كل تلك السعادة والفرح؟!

تأملت الصورة وأنا أشعر بالحزن يعتريني، والدموع انسابت من عينيَّ، كنت غاضبًا من كل شيء، حاولت تذكُّر ملامحها لكن من دون جدوى، كم كان مؤلمًا ما حلَّ لكنه كان أكثر إيلامًا لي، فأنا كنت أكتشف كل ما هو سيئ داخلي مع مرور الوقت، لمَ كنت بذلك القبح والظلام؟!

هل لذلك تركتها تغادر؟!

أشفقت على ذاتي وعلى ليلى التي تركتها خلفي، لا أعرف كيف حالها، فبعد مرور كل تلك الأعوام أنا مدين لها باعتذار ومبررات، وكذلك للبحث عن أي ماضٍ قبل مراد توفيق الذي جعل حاضري كله جحيمًا.

أخذت المذكرة والصور وبأكتاف منحدرة إلى الأسفل كادت تلامس الأرض، تحكي قصة خيبات لا تُعد، وآمال تحطمت تحت وطأة الأيام، قررت العودة إلى الفندق للحصول على بعض الراحة والتفكير للقادم.

في أثناء عودتي اتصلت ببيير، كنت أحتاج الكثير من التفسيرات في تلك اللحظة، وأيضًا ربما تفهَّمت لمَ كان خائفًا من الحديث معي، ومصارحتي بكل ما يعرفه، لم أكن لأصدق بيير، ولم أكن أعرف كيف ستكون ردة فعلي، أجابني بصوت هادئ والكلمات منقطعة خارج فمه.

"سيد مراد؟!".

"كيف حال الأولاد؟".

"بخير سيد مراد، هل أنت بخير؟".

"جيد، أحتاج بعض التوضيح للكثير بيير".

"بالتأكيد، أنا في خدمتك، ذهابك للقصر لن يفصح عن كل شيء، لكن كان لا بد منه حتى أستطيع شرح الأمور الآن بطريقة أفضل، هل تود مني الالتقاء بك؟".

"ليس الآن، الآن بعض الإجابات وسأتصل بك لاحقًا لأرتب موعد اللقاء".

"حسنًا".

"يوسف عز، أيعرف شيئًا عن الأولاد؟ وهل يعلم أنهما يقيمان معك وأنك ترعاهما؟".

"لم أرَ يوسف عز منذ وفاة هشام بك توفيق، ولا أعتقد أن أمري يهمه، أنا مجرد خادم كان يعمل بقصر مهجور الآن، ولا أخرج من المنزل سوى لشراء ما يحتاج إليه الأولاد، اطمئن، هما بأمان، ذلك ما كنت حريصًا عليه طوال الأعوام الماضية".

"جيد، حافظ على ذلك، كنت أرسل المال إليك، كيف تحصل الآن عليه؟".

"منذ ثلاثة أشهر أتولى الصرف من حساب بنكي باسم الأولاد، تركتَ لي توكيلًا للتعامل مع ذلك الحساب، هل أنت بحاجة للمال؟".

"ربما أحتاج، سأخبرك، هل يبدو لك اسم ليلى مألوفًا؟".

"لا سيدي، لا أعلم مَن تكون".

"لا عليك، أخبرني بيير هل تعلم من كنتُ قبل مجيئي إلى القصر، قبل أن أصبح مراد توفيق؟".

"الحقيقة سيدي لا شيء على الإطلاق، هشام بك كان حريصًا على ذلك، كنت أشفق عليك جدًّا ممَّا مررتَ به، لم أكن لأتخيل أن ينجو منه أحد، لكن أنت كنت مختلفًا، كلما زاد الألم والعذاب أصبحت أصلبَ وأشد، ومع مرور الوقت أصبحت أكثر ما يرعب في ذلك القصر اللعين".

"حسنًا، سأتصل بك لاحقًا، اعتنِ بالصغار، ربما اضطررت للسفر خارج المدينة لعدة أيام، وعند عودتي سألتقي بك".

"بالطبع سيد مراد، سأكون بانتظارك".

****

وصلت إلى الفندق، وأنا في طريقى نحو الغرفة حاول ذلك اللعين في الاستقبال الحديث معي، لكني لم أكن مستعدًّا لسماع أي شيء آخر في ذلك اليوم، كل ما يهمُّه المال، ربما أراد تملُّقي قليلًا والحديث ليجني بعض الأوراق الملونة التي يحبها، تجاهلته مُلوحًا بيدي... "لاحقًا لاحقًا".

مجددًا أفترش السرير لكن بلا نوم، الأفكار برأسي لا تنتهي، مصحوبة بألم شديد وضياع أكثر من أي وقت مضى، ألف سؤال وسؤال عن ليلى، وكيف سيكون شكلها؟ هل تزوجت؟ هل أنجبت؟ هل ستتذكرني؟ هل ستسامحني؟ هل سأعرف أي شيء عن ماضي مراد؟

اختلط الأمل والخوف داخلي، ضياع لم يكن ليحل سوى من خلال اللقاء.

الصفحات المطوية القديمة المتروكة طي النسيان والفقد، مثل ذاكرتي الضائعة وسط صخب الحياة المستمر، لم تترك لي مجالًا آخر سوى الفضول والسعي نحو المجهول لاكتشاف أعماق الهوية الضائعة، في تلك اللحظات عزمت على البحث عنها ولقائها.

خلف الصورة، وكما كان واضحًا أنها لازمة لدى مراد توفيق، كان عنوان المدينة مدوَّنًا،

كانت مدينة ساحلية تبعد عشرين ميلًا بعد المئة عن مدينة الظلام، اخترت الذهاب بالقطار، كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحًا حين وصلت إلى محطة القطار.

كانت السماء مزيجًا من ألوان الفجر، والشمس تشرق ببطء وبرود، ملقية بأشعتها على الأرصفة الهادئة، المحطة كانت تعج بالحياة رغم الوقت المبكر، المسافرون يتنقلون بخفة بين المنصات، وأصوات مكبرات الصوت تعلن مواعيد الرحلات القادمة.

صعدت إلى القطار باحثًا عن مقعد بجانب النافذة، كان القطار حديثًا ومريحًا، مقاعده مبطنة بلون أزرق عميق يتناغم مع الأجواء الهادئة، جلست بجانب نافذة كبيرة، حيث الاستمتاع بالمناظر على طول الطريق، بعد دقائق قليلة انطلق القطار مغادرًا المحطة بصفير رنان.

مع تحرك القطار ببطء بدأت المباني الشاهقة في المدينة تتلاشى تدريجيًّا، ليحل محلها منظر الريف الواسع، كانت الحقول تمتد على مد البصر، مغطاة بسجاد من الأزهار البريَّة والأعشاب المتمايلة، كانت المشاهد السريعة المتعاقبة من خلف زجاج القطار غير ملهمة، من دون صوت أو رائحة، اللحظات تعاقبت خلف بعضها بعضًا، ظللت أتفقد الحاضرين بشغف وفضول كبيرين.

في المقصورة جلست بجانبي سيدة مُسنَّة تحمل كتابًا قديمًا يبدو كأنه يحمل قصصًا من زمن بعيد، كانت هناك عائلة صغيرة أمامي، الأم تحاول إبقاء طفليها مشغولين بالقصص والحكايات، بينما كان الأب يراقب المناظر من النافذة بعيون حالمة.

على الجانب الآخر جلس شاب يرتدي سماعات، يهتز برأسه على إيقاع موسيقى غير مسموعة، مع كل محطة يتوقف عندها القطار كانت تتغير الوجوه، لكنها تحمل التوقعات نفسها والأمل في الوصول إلى المدينة.

القطار يشق طريقه عبر الغابات الكثيفة، حيث تنعكس أشعة الشمس عبر الأشجار، مكونة لوحات طبيعية، الأنهار تجري بهدوء تعكس السماء، وجسور صغيرة تربط بين القرى المتناثرة، لم أستطع تحمُّل لحظات الصمت التي كنت أعيشها بالخارج، وأصوات الضجيج العالي بداخل رأسي المسكين، أردت أن أحجب تلك الأصوات بأن أشغل عقلي عن الماضي المفقود... ليلى، ذلك الاسم الذي حرَّك ثكنات قلبي بنبض جديد، نبض اللهفة والشوق، ذلك الاسم الحاضر في ذهني والغائب بصورته، لم أستطع تخيُّل ملامحها أو حتى استرجاع صورة من ذاكرتي الخائنة.

فقط ذلك الشعر الأسود المنسدل خلف كتفيها يتطاير مع نسيم الهواء أمام شاطئ ذهبي وسماء زرقاء صافية ورائحة البحر، كلما تذكرت ذلك المشهد شممت رائحة نسيم البحر، أنا لم أتذكر ليلى لأنني لم أنسَ مشاعر الحب تجاهها بداخلي، أحببتها وما زلت رغم أني أصبحت مراد توفيق، هشام والشيطان نفسهما لم يستطيعا جعل ذلك الحب يتلاشى داخل قلبي المحطم.

كلما اقترب القطار من المدينة بدأت تظهر لمحات من البحر على الأفق، مرت الدقائق والساعات خلال رحلة القطار، لم أشعر بالوقت ولم أدرك أنه مر، كانت الرحلة سريعة وسهلة لأني لم أخضها حقًّا، رائحة الملح بدأت تتسلل إلى داخل القطار، ممزوجة بنسيم البحر المنعش، الأطفال في المقصورة قفزوا فرحين عندما لمحوا السفن الكبيرة في الميناء من بعيد، شعرت بإثارة متزايدة مع كل دقيقة مرت.

أخيرًا بدأ القطار يتباطأ، معلنًا اقتراب وصوله إلى محطة المدينة، فور وصولي المحطة أصابني الارتباك والقلق في جدار معدتي، كيف لي أن أجدها؟ كانت المدينة تنتظر بفارغ الصبر، والميناء يرحب بالقادمين بأذرع مفتوحة.

عند النزول من القطار استقبلني مشهد الميناء الصاخب، السفن الراسية، الرافعات الضخمة التي تحمل الحاويات، والتجار الذين يعرضون بضائعهم.

شاعرًا بمزيج من الحماسة والخوف، صوت الأمواج المتلاطمة على الأرصفة كان كأنه لحن ترحيب خاص به، وقفت للحظة مستمتعًا بالمشهد الساحر، قبل أن أقرر بدء مغامرة في استكشاف المجهول.

عندما توقف القطار أخيرًا في المحطة ترجلت من القطار مع موجة من المسافرين الآخرين، وأخذت نفسًا عميقًا، لم يكن لديَّ سوى اسم "ليلى نمر" ومعلومة أن أسرتها تعمل في مجال التجارة والشحن، كنت أعلم أن البحث عنها في تلك المدينة الكبيرة لن تكون مهمة سهلة، لكني كنت مصممًا على المحاولة.

كان ما يشغل تفكيري أنها مدينة كبيرة، كيف لي أن أبحث عن شخص لا أعرف سوى اسمه؟ ليلى نمر، ربما وجدت على أثر ذلك العمل ما كنت أبحث عنه.

بالقرب من شاطئ البحر كانت الرمال الذهبية ذاتها، أراها كلما تذكرت ليلى، بتُّ أسأل الأشخاص من حولي، أتعرف إحداهن باسم ليلى نمر؟

كانت إجابتهم "لا"، لكن عائلة نمر معروفة بالمدينة، معروفون بالتجارة، كانت نصيحتهم الذهاب إلى المرفأ أو السوق وسأجد هناك من يدلني، توجهت فورًا نحو السوق ربما وجدتها هناك بإحدى محلاتهم أو أحد الأشخاص هناك يدلني، أروقة السوق بدت لي مألوفة، كأنني كنت هنا، الأزقة والطرقات، حتى الوجوه البسيطة العاملة التي رأيتها في كل أنحاء السوق، بدت أيضًا مألوفة، تجولت في شوارع السوق تحركت في كل الاتجاهات، كنت متلهفًا ومشتاقًا لمقابلتها حقًّا.

المدن الساحلية معروفة بكثرة مجالات التجارة بها، بيئة مناسبة للعمل والثراء، لم أكن أعرف حقًّا أين أتجه أو أذهب، الذاكرة لم تسعفني، فقط بعض ومضات ولحظات مرت بسرعة في ذهني مثل المشاهد السريعة من خلف نافذة القطار الذي أحضرني إلى هنا.

كانت الشمس تغرب ببطء على مدينة المرفأ، والغروب يزين السماء بألوانه الدافئة، تجولت بلا هدف في أنحاء المدينة، محاولًا جمع شتات أفكاري، فقداني الذاكرة كان مثل ظل ثقيل يلاحقني، لكن كنت أشعر أن شيئًا ما يربطني بذلك المكان.

عندما وصلت إلى الميناء توقفت لبرهة مستمتعًا بمشهد السفن الراسية وصوت الأمواج التي تتلاطم بلطف على الأرصفة، لفت نظري شاب في مقتبل العمر، يحمل بضائع ثقيلة من السفن إلى المستودعات، كان الشاب يعمل بجد، عرقه يتصبب، لكنه كان مبتسمًا وكأنه يستمتع بكل لحظة.

تسمرت مكاني، شعرت بشيء يتحرك في أعماق ذاكرتي... كان ذلك المشهد مألوفًا جدًّا، ولكنني لم أستطع أن أضع إصبعي على السبب، اقتربت ببطء من الشاب محاولًا استعادة تفاصيل ماضيَّ الضائع، وبينما كنت أراقبه بدأت ذكريات غامضة تتدفق إلى ذهني، رأيت نفسي وأنا شاب، يعمل بالطريقة نفسها في مكان مشابه جدًّا.

تذكرت صوت الرافعات، ورائحة البحر، وملمس الحبال الخشنة بين يديَّ، تلك اللحظات كانت جزءًا من ماضيَّ، لكنني لم أستطع تذكر تفاصيلها بالكامل.

في تلك اللحظات اسم نمر بدأ يظهر أعلى سلسلة بجوار بعضها بعضًا، يعملون في التجارة والنقل، الكثير من العاملين، راقبت وجوههم، وكأنني أُبحر في ذاكرتي المفقودة. قلق وسط تساؤلاتي... هل ستتذكرني ليلى؟ أم أصبحت وجوهنا غريبة بعد مرور تلك السنوات؟

في تلك اللحظة تمنيت لو أن الزمن يعود للخلف، لأنعم بلحظات الحب والدفء مرة أخرى.

أوقفت أحدهم لسؤاله: "أين أجد ليلى نمر؟".

انتابته لحظات من الصمت وارتسمت على وجهه تعابير وملامح الاندهاش **وقال**:

"لا يوجد أحد بهذا الاسم، لكن تلك المحلات ملك عائلة نمر".

"هل أجد هنا أحدًا من عائلة نمر يستطيع مساعدتي؟".

"دعني أسأل الريِّسة، ربما تساعدك".

"حسنًا شكرًا لك".

"ريِّسة من هذه أيضًا؟".

توجَّه نحو الداخل، تحرك بين الجموع ليقف في نهاية المحل أمام مكتب جلست خلفه سيدة بفستان أصفر رقيق نُقشت عليه أزهار ملونة، بيدها أوراق تتفقدها باهتمام، انحنى نحوها ليحدثها على استحياء ورهبة، لا أعلم ماذا قال لكن وقع ما قاله جعلها تترك الأوراق وترمقه بنظرات غريبة.

لم أعتقد أن ما سمعته أعجبها حقًّا، قالت بضع كلمات لم أسمع منها شيئًا، لكنه تراجع للخلف بخطوات غير متزنة، وبمجرد أن ابتعد بضعة أمتار عنها التفت وأسرع نحوي قائلًا: "يا هذا... الريِّسة تريدك عند مكتبها، اذهب إلى هناك، لا ترفع صوتك فهي تكره ذلك، كن مختصرًا وسريعًا، هي لا تملك الوقت".

تلك السيدة بدا أنها تدير كل شيء، اتجهتُ نحوها بخطوات ثابتة، كانت مثل لوحة نسيم البحر أنعشتني رؤيتها، ملامح جميلة كجمال تلك المدينة الساحرة، عيون مرسومة وشعر أسود كثيف، رقبة طويلة وشفاه ممتلئة، وجسد يصرخ بالأنوثة والدلال.

لكن ملامحها لم تتسق مع لسان حالها على الإطلاق... كيف لذلك الجمال وتلك البراءة أن تكون "الريِّسة" بتلك الشدة والهيبة، كانت غير مهتمة بما هو قادم نحوها، بدت كما لو كانت تتعمَّد تجاهلي، بادرتها قائلًا:

"مرحبًا".

لم تجب، وساد الصمت المكان المزدحم، لم أدرك شيئًا، كأننا وحدنا بذلك الكون الفسيح، كانت ساحرة... لم تنظر لي، بل قالت بكلمات حازمة مقتضبة:

"ليس لديَّ وقت، ماذا تريد من عائلة نمر؟".

اخترقت جميع دفاعاتي... جمالها وهيبتها اختطفاني خطفًا، **قلت**:

"أسأل عن ليلى نمر".

للحظة توقفت عمَّا كانت تفعله ورفعت بصرها لي باستغراب شديد، ثم بهدوء قاتل عاودت النظر مجددًا في أوراقها، تظاهرت أنها تعمل لكنها فقط تريد تجنُّبي، لتردَّ بعد عدة لحظات من الصمت:

"لا أحد هنا بهذا الاسم".

قتلتني كلماتها وأطفأت نار شوقي، صمت آخر قاتل، كان هناك ما يشغل تفكيرها، لكنها أضافت:

"حسنًا، عائلة نمر تقيم هذا المساء حفلًا، اذهب إلى منزلهم بالقرب من الشاطئ، بجوار المرفأ على التلِّ، ربما تجد من يساعدك هناك بالبحث عنها".

انصرفت متيَّمًا بذلك الجمال الصامت، ومتعجبًا من ردة فعلها، بينما عاد الأمل ليشتعل في قلبي بأن حفل عائلة نمر قد يفتح الطريق للعثور على ليلى، مستقبلي يعلو بين اللحظات المظلمة والنقاء الذي جاء بصورة مفاجئة، تسابقت مشاعر الفقدان والأمل في قلبي، كنت مستعدًّا للانطلاق نحو الشاطئ لاستكشاف الطريق إلى عائلة نمر، والكشف عن ألغاز الماضي وربما إيجاد ليلى.

"هل من الممكن أن تعرف هذه السيدة ليلى؟ لماذا إذن تخفي الأمر عني؟".

وما الذي تخفيه؟ ربما تعرفت إليَّ حقًّا لكنها حاولت إخفاء ذلك، ردة فعلها وطريقتها في تجنُّبي لم تمرَّا بسلام، أو ربما هو سحر الجمال الذي أطلقته نحوي.

ذهبت باحثًا عن ليلى، فهي كل ما تبقى من آمال محطمة في عالمي، ولم يسعني أن أفعل شيئًا آخر سوى البحث عنها.

كرهت الحفلات، فواقعها مؤلم لي، ليس لديَّ سوى تجربة واحدة سيئة وأعتقد أنها تكفي... خرجت من المحل وأنا أفكر في الحفل، كيف أذهب هناك؟ من سأجد؟ والكثير الكثير يدور برأسي، لكن وجه تلك السيدة لم يغِبْ لحظة، الأمل بداخلي في تزايد، كانت مجرد لحظات تفصلني عن ليلى حبيبتي الضائعة، وذاكرتي الضائعة، وحياتي الضائعة.

كنت أنا عنوان الضياع في ذلك العالم المظلم، لكن لا بأس، سأظل أحاول وأحاول أن أحلَّ كل تلك التعقيدات من حولي بأي ثمن، لم أكن أعلم حقًّا ما قد اضطر لدفعه لاحقًا.

ارتديت ملابس الحفل، قميصًا أبيض وبنطالًا أسود وحذاء لامعًا، هذا كل ما كنت أحمله معي في تلك الرحلة، لم أكن مستعدًّا لأي شيء سوى أن أجدها، حلَّ المساء قبل أن أصل إلى الحفل، وبمجرد وصولي وجدت المنزل على التلِّ أمامي، لكن الوضع هناك مختلف، بيت ساحلي فخم على مشارف شاطئ البحر، الأنوار تملأ المكان، خلف المنزل البحر والأجواء الجميلة، زادها القمر جمالًا بمشهد تجلى فيه البحر متلألئًا باللون الفضي تحت ضوئه.

رائحة البحر والهواء، والقمر ينير في مشهد رائع أعاد لي الأمل أن أجد ضالتي هنا، حيث الليل يغمر المكان بظلامه، وأصوات الأمواج هدأت تحت نور القمر الباهر، وسط ذلك الهدوء بدأ الحفل الفاخر بجماله ورونقه.

اجتمع الضيوف في حفلة ساحرة، ولكن في قلب ذلك البحر الهادئ، تلوح رياح عاصفة من الماضي، المنزل الفخم كان مزيجًا من العمارة التقليدية والحديثة، بأعمدته الرخامية وشرفاته الواسعة المطلة على البحر.

كان الحفل في ذروته، الضيوف يتوافدون بأزيائهم الفاخرة، النساء بفساتينهن الطويلة والرجال ببدلاتهم الأنيقة، وكانت الموسيقى الكلاسيكية تُعزَف بهدوء من فرقة موسيقية تقف في زاوية الحديقة الخلفية.

كانت الحديقة مزينة بطاولات مستديرة مغطاة بمفارش بيضاء ناصعة، وأزهار نضرة تزين كل طاولة، وكانت الأضواء المعلقة بين الأشجار تخلق جوًّا من الدفء والرومانسية، والنادلون يتجولون بين الضيوف، يحملون صوانيَ فضية مملوءة بالمقبلات والمشروبات الفاخرة.

دخلت إلى الحفل وأنا أشعر بمزيج من الفضول والتوتر، كنت أشعر أن ليلى ستكون هناك، وأن ذلك هو أفضل مكان للبحث عنها، تجولت بين الضيوف، محاولًا ألا ألفِتَ النظر، كانت وجوه الضيوف تعبِّر عن السعادة والراحة، تبادلوا الأحاديث والضحكات.

ظللت اتفقد الحضور باحثًا عن ليلى، أو السيدة التي قابلتها صباحًا، لم أكن أعلم حقًّا أيهما كان أهم بالنسبة لي في تلك اللحظة.

استوقفت أحد الحاضرين وسألته:

"هل لك بمساعدتي، أبحث عن أحد أفراد عائلة نمر، أين أجد أحدهم؟".

أجابني:

"لم يتبقَ منهم الكثير، أكبرهم ذلك القعيد على الكرسي المتحرك، إلياس نمر، واثنان من أبنائه خارج البلاد يديران مصانع العائلة، وكان له اثنان من الأبناء توفيا منذ أعوام إثر حادث أليم هو سبب جلوسه الآن على ذلك الكرسي".

في أثناء حديثنا إذا بالقمر يتجلى على صورة امرأة، كانت تلك السيدة التي بمجرد أن ظهرت أمامي ارتسمت على شفاهي ابتسامة ونظرة بلهاء، لقد سيطرت على كل جوارحي، قلبي انتفض بالرقص وتسارعت أنفاسي وكأنني على شفا حرب، كانت تلك اللحظات كجرعة من النسيان والضياع الحقيقي، لكني كنت أحبه وأشتاق إلى المزيد منه.

سألته عنها:

- "الريِّسة، هل هي ليلى نمر؟!".

كنت أتمنى أن تكون ليلى هي نفسها السيدة التي قابلتها صباحًا، لكنه أجابني قائلًا: "اسمها جميلة، وهي تدير جميع أعمال عائلة نمر، المقربة والمدللة لإلياس نفسه، وتعدُّ وريثته، جميلة نمر، بعضهم يقول إنها ابنته وآخرون يخافون سؤاله، قعيد كان أو يمشي على قدميه، يظل إلياس نمر".

"تدير كل أعمالهم ولا تعلم عن ليلى شيئًا! كيف ذلك؟".

أثارني الفضول والدهشة، "إذا كانت تعرف ليلى فلماذا أخفت ذلك؟ ولماذا أخبرتني أن أحضر الحفل وأحاول البحث هنا، شيء ما غريب في الأمر؟".

شكرته وعدت مجددًا لأجواء الحفل، لكنني كنت مشتتًا ضائعًا أبحث عن جميلة، سحرها تركني مكبلًا لم أستطع التفكير، كنت غير قادر على التركيز أو تذكر أي شيء، جميلة هي.

في تلك اللحظات التي كنت أعيشها، لم أكن قادرًا على مراوغتها ولم أعد قادرًا على تحمُّل النسيان أيضًا، ذلك الفقد الذي سببته مذكرات هشام، وما شعرت به في ثنايا قصر آل توفيق جعلني مستنكرًا مستنفرًا لكل شيء، أردت العودة بشدة، أردت العودة إلى ما قبل مراد توفيق، كنت أعلم جيدًا أن حياتي قبل ذلك القصر احتوت الدفء والسعادة، شيء ما جعلني أهرب لما هو مظلم وشيطاني، كان عليَّ معرفة السبب.

اقتربت من ذلك المدعو إلياس نمر حتى أسأله عن ليلى، لعله يساعدني أو يشرح لي ما فُقد مع الزمن، اقتربت منه بهدوء، محاولًا الوصول لأي شيء.

"مرحبًا سيد إلياس".

التفت بكرسيه وارتفع بناظريه حتى يعرف من يزعجه، ما قد سمعته يكفي أن يشرح لماذا يتجنبه الجميع ويخافون منه، لقد مات أولاده وأصبح قعيدًا إثر حادث سيارة، ولكنه الشخص نفسه المخيف للجميع هنا، لكن أنا لم يخفني شيء، فقد رأيت ما هو أسوأ وأكثر ظلامًا من ذلك العجوز.

تفاجأت بردَّة فعله، ظل ينظر لي بتمعُّن وكلما مر الوقت بدأت ملامح الفزع والرهبة تتشكل على وجهه، ملامح الخوف تلك ورائحتها أعرفها جيدًا، كان ذلك العجوز يعرفني، وبدا كأنه رأى شبحًا من الماضي، كان خائفًا لدرجة أن صوته لم يخرج من بين شفتيه، كان يحاول إخباري بشيء، اقتربت منه حتى أستطيع سماع ما يتمتم به، اقتربت لأسمعه يقول:" اهرب... اهرب فورًا".

تلك الكلمات أصابتني بالدهشة، وما إن هممت بسؤاله حتى تفاجأت بأحدهم يأخذه، وجميلة تقف خلفي معتذرة:

- "الرجل أصبح طاعنًا في السن، وظروفه الصحية لم تعد تسمح له بالجلوس أكثر من ذلك، هو مرهق ويحتاج إلى الراحة".

قالت تلك الكلمات بحزم وانصرفت بسرعة.

بدت الأمور معقدة أكثر ممَّا كانت عليه، لم أعلم لماذا فاجأني بطلب الهرب؟! ماذا صنعت حتى أهرب؟! لم أستطع إنهاء حديثنا فقد أنهته جميلة بدهاء، وتركتني محاولًا تدارك الموقف وفهمه، أو حتى تخيُّل لماذا يخافني ذلك الرجل؟ لماذا أصيب بالذعر والرهبة عندما رآني؟ يبدو أنه يعرفني جيدا! كنت متأكدًا وجميلة أيضًا تعلم شيئًا ما.

طوال الحفل كانت تراقبني وتتجاهلني في آنٍ واحد، بدت غير مكترثة بوجودي، لكنها لم تهتم بشيء آخر في الحفل غير تحركاتي.

لم أكن أعلم ما الثمن الذي عليَّ دفعه حتى أعرف الحقيقة، الظلام والغموض يلاحقانني أينما ذهبت، وكأنها لعنة من نوع ما، ظلام لم أستطع الهرب منه.

لم يعد لديَّ حل آخر سوى مواجهتها، فقد حاولت بكل الطرق كشف ذلك الغموض المستتر خلف كل شيء، تلك الجميلة التي تعطلت كل دفاعاتي أمامها واستسلمت لسحر صوتها وسيطرتها، كانت تحتفظ بالكثير، وكنت متأكدًا أنها تخفي شيئًا ما، كلما حاولت الاقتراب منها ابتعدت بدهاء، كنا كمن يلعب لعبة المطاردة، وبدا أنها تستطيع اللعب جيدًا.

اقتنصت فرصة تجلت أمامي، رأيتها تتجه منفردة نحو الشرفة المطلة على الشاطئ بعيدًا عن أنظار المدعوين، وقفت تنظر نحو أمواج البحر السوداء التي تتلألأ تحت ضوء القمر، اتجهتُ نحوها، كان عليَّ أن ألعب بدهاء... "سأجعلها تخبرني بكل شيء".

استخدمت طريقة أخرى للحديث معها، شعرتُ أنها تعلم أني لا أتذكر شيئًا، لذا لم تخبرني، بل استغلت تلك المعلومة لصالحها، لكنني لم أكن أعلم السبب، قررت تجربة طريقة أخرى لأستطيع هزيمتها هذه المرة في حرب الكلمات والعيون، وقفت خلفها بخطوة أو اثنتين، كانت تعلم أني سأخرج من الحفل خلفها، بهدوء وبصوت رخيم قلت لها:

"جميلة... أتذكرين آخر مرة تقابلنا؟ مرت سنوات، ما زلتِ تحتفظين بكل هذا الجمال".

"تعمدت أن أدسَّ لها فكرة أني تذكرت كل شيء، كنت أتعمد إيهامها، محاولة بائسة مني لكن من الممكن أن تجدي نفعًا، ربما سقطت دفاعتها وصرَّحت بالحقيقة".

سمعتها تتمتم، لكن لم تكن كلماتها مفهومة، سمعت صوت أنين وكأنها تبكي، التفتت نحوي بعينين دامعتين وعلى وجهها ابتسامة غريبة لم أعهد مثلها، ولم أرها من قبل قط، **وأجابتني بصوت خافت ومتقطع:**

"كيف؟! كيف لي أن أنسى اللعين الذي دمَّر حياتي وغيَّرها للأبد!".

كانت كلماتها مقترنة بطعنة!

سِكين ليلى لم أشعر بها، لكنها توسطت صدري من دون ألم!

نعم، جميلة التفتَت نحوي وقالت تلك الكلمات وهي تطعنني بسكين أخرجتها من حقيبتها.

في تلك اللحظة عرفت لمَ الذعر الذي انتاب إلياس العجوز، في تلك اللحظة أيضًا أيقنت لماذا قالها:

- "اهرب... اهرب فورًا".

في تلك اللحظة تأكدت أن جميلة هي نفسها ليلى!

شعرت بدفء الدم يَسري على جسدي، الظلام انتصر وبدأ الليل بالتسلل إليَّ، سمعت بكاء ليلى وشعرت بها تحتضنني بين ذراعيها، عمَّ الصمت والظلام، كان هشام توفيق الوحش الذي صنع مراد، وكنت أنا الوحش الذي صنع جميلة نمر.

غمرت مراد مشاعر مختلطة بين الدهشة والخوف والألم، وفي تلك اللحظة المفاجئة تتلاشى الحقيقة في بحر من الأسرار، وتتعالى صيحة صامتة في الظلام، تخترق القلب بسهام من الألم والتساؤلات.

لم يكن الموت هو الفصل الأخير في قصة مراد توفيق، كيف لذلك الشخص أن ينعم بالموت؟!

ارتسمت صورة في ذهن مراد، وحش ضارم أسود يشبه الذئب، يقف على مقربة منه مزمجرًا، لكن مراد يقف أمامه بلا حراك أو خوف، الوحوش لا تخشى بعضها، لكنها تدين لبعضها بالولاء، مراد كان يعلم أنه وحش، بل أشد الوحوش فتكًا وبأسًا، ما رآه خلال الأشهر الماضية جعله يدرك تلك الحقيقة، المعركة الحقيقية في حياة كلٍّ منا ليست في الخارج، بل الداخل، أكبر معاركنا بالداخل.

قليلون جدًّا من يواجهونها، وقليلون من يستطيعون الانتصار على الظلام بالداخل، لقد كانت رحلة مراد توفيق مليئة بالمعاناة والتحديات، ورغم أنه كان يواجه الوحوش الخارجية في محيطه، فإن المعركة الحقيقية كانت تدور بداخله، لقد اكتشف أن الشر الحقيقي استقر في زوايا عقله وقلبه.

الصورة التي ارتسمت في ذهنه تُظهر الوحش الأسود، الذي مثَّل الظلام الداخلي الذي كان يحاول مراد مواجهته، عبَّر ذلك الوحش عن الجوانب المظلمة في شخصيته، الغضب، الألم، والأسرار التي حاول تجاوزها.

لكنه ظهر وقد تقدم لمواجهة ذلك الوحش من دون خوف، يعبر الظلام ليكشف عن أعماقه، وفي أثناء تلك المواجهة ظهر له ضوء وسط الظلام الذي يقبع به، بعد طعنة ليلى قرر أن يتحرك باتجاهه، لم يعد لديه الكثير، تبعه والضوء يزداد إشراقًا وسطوعًا حتى عمَّ كل شيء، فتح عينيه ليجد نفسه في غرفته داخل الفندق بوسط المدينة، تلك الغرفة نفسها التي تركها باحثًا عن الحقيقة، باحثًا عن ليلى، باحثًا عن الدفء والحب والحياة.

"علامة الطعن أثرها موجود على جسدي! لكن كأن أعوامًا قد مضت على ذلك الجرح بصدري".

تفقدت جسدي فلم أرَ أثرًا للطعن، هل كنت أتخيل؟ أحلم ربما؟

لا، لقد مرَّ أكثر من أسبوع، لقد كنت غائبًا فيها أبحث عن ليلى، ملابسي يوم الحفل، الرمال على الحذاء، لقد كان ذلك حقيقيًّا... أين ذهبوا؟ لماذا أنا هنا؟ أين ذلك الجرح بصدري، كاد رأسي ينفجر.

صرخت بشدة، حاولت أن أُخرج قليلًا من الغضب بداخلي، كدت أنهار من شدة ما مررت به، لم أعد قادرًا على فهم أي شيء دار حولي، هل كان ذلك الجنون من أفعال يوسف عز؟ يريد أن يصيبني بالجنون؟ أم هي أفعال الشيطان نفسه؟ ماذا أفعل؟

بسرعة وجنون توجهت نحو مدخل الفندق، ذلك اللعين في الاستقبال بالتأكيد يعرف ما حدث.

سألته بانفعال شديد:

"ما الذي حدث؟ كيف وصلت إلى الغرفة؟".

"ما الأمر؟ اهدأ".

ظهرت الابتسامة الصفراء على وجهه وقال:

- "لا تقلق، يبدو أن الحفل كان صاخبًا".
- "كيف وصلت إلى هنا؟ تحدث".

"لا بأس، البارحة أحدهم أحضرك، كنت فاقدًا الوعي، طلب مفتاح الغرفة وقال إنك قضيت وقتًا ممتعًا، ومن شدة الإعياء والتعب إثر تلك الليلة فقدت الوعي، قال إنك صديقه وطلبت منه إحضارك إلى هنا، الحقيقة كان سخيًّا، ترك بعض المال وطلب منَّا عدم إزعاجك".

"ألم يترك شيئًا آخر؟ صِفه لي، قل أي شيء".

"الجو كان هادئًا والوقت متأخرًا، لا نُشعل الأضواء ليلًا لذا لم أرَ شيئًا".

كنت في حيرة ورهبة لا توصف، الألم يدق رأسي، كنت أحلم ربما، لكن كيف رأوني أغادر الفندق وأعود أيضًا بصحبة أحدهم.

لم أستطع الوصول إلى تفسير لما حدث، كل ما أتذكره دموع ليلى المتساقطة والدماء والظلام، ثم ذلك النور في الأفق حيث استيقظت، لا شيء آخر سوى ذلك الشبح الذي أحضرني إلى الفندق.

الفصل السابع

عانى مراد من انهيار، إذ اعتراه الغضب واقتحمته الحيرة بشدة، صراخه عكس حالة الضياع والاستياء التي شعر بها، تساءل عن الأحداث وكيف تورَّط فيها من دون أن يكون لديه تفسير لتلك اللحظات.

حاول تجميع نفسه والتفكير مجددًا في خطواته التالية، الأحداث التي مر بها خلال غيابه وشعوره بالعجز والضغط عززا حالة الفوضى التي مر بها، حاول تذكر الأشخاص الذين يستطيعون مساعدته، د. زهير صديقه الذي كان يعمل معه يعرف تفاصيل فقده الذاكرة، وساعده في إيجاد بيير، ربما يساعده لفهم ما حدث، لكن الموتى لا يجيبون.

مراد الذي كان يأمل في العثور على إجابات للأحداث الغامضة التي شهدها، تصوَّر أنه يمكن لزهير أن يقدم التوجيه والمساعدة في فهم الوضع، والبحث عن الحقائق المفقودة، أمسك الهاتف بسرعة محاولًا الاتصال بزهير، الهاتف يدق لكن لا إجابة، أغلق وحاول مجددًا ليفتح الخط، من دون تردد صرخ:

- "زهير، ساعدني أنا أحتاج أن ألتقي بك الآن".

سمع صوت امرأة تقول:

- "مَن أنت؟ ماذا تريد؟!".
- "أريد د. زهير فورًا، الأمر خطير وعاجل".
- "للأسف لن تستطيع الوصول إلى د. زهير الآن".

قالتها بصوت أجش، استطاع مراد أن يسمع البكاء في صمتها.

- "أرجو المعذرة، أنا ابنة دكتور زهير، والدي مُتوفًّى".
- "ماذا تقولين؟! كيف حدث ذلك؟ متى؟".
- "أقدِّر مشاعرك، ربما أنت صديق قديم لوالدي ولم تعرف ما أصابه، لقد تُوفيَ في حادث سير منذ أكثر من عام، أنا آسفة، لكن لا يمكنني مساعدتك".

****

سقط الهاتف من يدي، "كيف؟ كيف لي أن أقابل شخصًا منذ أيام قليلة وقد مر على موته أكثر من سنة؟!". جثوت على ركبتيَّ أرضًا وسقطت بدوري.

كان ذلك انهيارًا لأنه آخر ما تبقى من بصيص أمل لي.

"هذا لا يُعقل، ماذا الذي يحدث؟ كيف لزهير أن يكون شبحًا؟! غير معقول! لا بد من تفسير آخر، أكاد أُصاب بالجنون".

خيبة أمل وأحداث غاية في الجنون والريبة وقعتُ بها أنا مراد توفيق، أو ما تبقى من منه، الواقع خانني كذاكرتي القديمة، كأنني كنت ألاحق سرابًا لا حقيقة.

"ما تلك اللعبة التي أعيشها؟! مَن صنع بي ذلك؟".

وجدت نفسي في خضم لغز كبير، اختلطت الحقيقة بالخيال، والذكريات بالأحداث، تلك الرحلة التي أظهرت تحديات وتغيرات كبيرة في واقعي، وقد كان طريقًا صعبًا لاستعادة ذاكرتي وفهم ما إذا كانت الأحداث حقيقية أم مجرد وهم وتخيُّلات.

لم أستطع النوم، بل كدت لا أنام مطلقًا، دائمًا رأسي يؤلمني بشدة، أطرافي كلها ترتعش وترتجف، أصبح الأمر جليًّا أمامي، أحدهم حاول أن يصيبني بالجنون، أحدهم أراد القضاء عليَّ، كنت أعاني من شيء ما.

"هل هو يوسف عز؟! يحاول السيطرة على إرثي، أم أنه لا وجود ليوسف عز؟!".

لم أعرف من أكون، سواء كنت مراد توفيق أو غيره فلن أدفع ثمن ما اقترفوه، لن أكون ضحية لذلك الماضي اللعين، سأختار الطريق الذي أكمله، لن أستسلم.

"تمالك نفسك، فكر جيدًا".

ذلك ما أردته دائمًا في لحظات الانهيار، تمالك نفسك.

دومًا ما كنت أبحث عن أشخاص في تلك الدائرة اللعينة التي بقيت أركض خلفها محاولًا الوصول إلى أي شيء، كان يجب أن أكسر تلك الدائرة، كان يجب أنا أخرج منها، كيف كنت بذلك الغباء؟! كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟

الشيء الوحيد الذي كان عليَّ فعله منذ البداية، الشخص الوحيد خارج تلك الدائرة، إنه ذلك اللعين الذي يراقبني ويتبعني منذ البداية، كان عليَّ اللحاق به أو مواجهته، كنت أهرب دائمًا، لم يكن هناك لقتلي أو إلحاق الضرر بي، كان فقط موجودًا لمراقبتي أو ليعرف كيف أتصرف وماذا أفعل، ذلك اللعين يملك كل شيء وسيحلُّ كل شيء.

مرت ساعات من التفكير والصمت أنهاها رنين الهاتف بجواري، كان بيير يتصل، "أخيرًا أحد ما حقيقي".

"آلو... سيدي أنت لم تتصل مجددًا، حاولت الاتصال كثيرًا لكن من دون رد، كنت قلقًا، هل أنت بخير؟".

"بيير، قابلني سأرسل لك عنوانًا أريدك أن تأتي إليه في تمام السابعة مساءً، مقهى قريب، فقط اِدخل واِجلس بجواري من دون أن توحي بأننا يعرف أحدنا الآخر، وانتظر تعليماتي".

في تلك اللحظات لم أكن قادرًا على التخطيط جيدًا، أفكاري عمَّها التخبُّط وتداخل الأحداث، حاولت اقتلاع الواقع اقتلاعًا، لم أكن أدرك الفرق بين الخيال والواقع، كلما اقتربت من شيء أخذتني الأفكار الشاردة واختطفني الواقع بعيدًا، كنت أفكر ماذا أفعل، كيف أقبض على ذلك اللعين؟

كيف أستطيع أن أكون الصياد؟ أن أجعل منه فريسة، آخر مرة حاولت الإمساك به تبخر كأنه سراب، ثم عاود الظهور مجددًا، كان عليَّ أن أجد طريقة ما.

ويا لحظي، بيير كان موجودًا لمساعدتي، ولكن كيف؟ كنت بحاجة إلى حلٍّ ما، وأنا في طريقي نحو المقهى، دخلت وما زلت أفكر في طريقة لإيقاع ذلك المجهول بين يديَّ، ربما بدلًا من أخذ دور الصياد أتركه لبيير وأصبح أنا الفخ، اعتقدت أن كل ما يهمه أنا، فلن يلاحظ ذلك اللعين بيير، هو فقط يريد مراد توفيق، تركيزه الشديد على ما يريده سيجعله يفقد الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة.

كنت متأكدًا أنه لن يلاحظ بيير، بينما كنت غارقًا في التفكير وجدت بيير يجلس بجواري بهدوء، لم يتفوَّه بكلمة، لاحظت العرق يتصبب من جبينه، وكانت عيناه خلف الدوائر الزجاجية ثابتتين أمامه، لم يلتفت.

همست:" بيير، يجب عليك أن تساعدني، هناك أحدهم يتتبَّعني وأنا أريد أن ألقي القبض عليه من دون أن يلوذ بالفرار".

كنت متأكدًا بأنه يراقبني من مكان قريب، شعرت بذلك.

"استمع لي بحرص، سأحاول استدراجه خلفي في أحد الأزقة بالجوار، بمجرد أن يدخل خلفي اتبعه فورًا وباغته، سدَّ عليه المخرج لنستطيع الإمساك به معًا، لن يجد فرصة للهرب، كن حذرًا وانتظر اللحظة المناسبة، لا أريده أن يشعر بأي شيء مريب، لا أريد أن يشعر بوجودك، كل ما يهمُّه أنا، لذا كن حريصًا ألا تلفت الأنظار".

كان صوته هادئًا متقطعًا، وسألني وهو يرفع نظارته بسبابته: "كيف سأعرفه؟".

"يرتدي ملابس سوداء ومعطفًا، هذا كل ما أتذكره، الآن اخرج وانتظر بالقرب من المقهى سأخرج بعد أن يمر بعض الوقت، تأكد أنه يتبعني ثم اتبعنا، وكما أخبرتك لا تلفت الأنظار، وتأكد أنه لا يراك، ثم نفِّذ ما أخبرتك به بدقة... الآن اخرج وتصرف بطبيعية".

"سأحاول سيدي".

ترك الكأس التي كان يلعب بها طوال الوقت، وضعها بحزم على البار أمامه وانطلق، انتظرتُ بعض الوقت ثم انطلقت مغادرًا المقهى، الليل والهدوء يعمَّان المدينة، كانت ليلة باردة ومظلمة، السُّحب تحجب ضوء القمر، والنجوم تسري بمسافات مستقرة، لم تكن سريعة ولا بطيئة.

كنت أحاول اختيار المكان المناسب، ابتعدت عن المقهى بحيٍّ أو اثنين، وفجأة ظهر أمامي، نعم، كان الزقاق المناسب للخطة، بدأت ملامحه تتشكَّل، لكن التساؤل هل تبعني ذلك اللعين؟ هل كان خلفي؟ والأهم هل التزم بيير بالخطة؟

سرتُ حتى نهاية الزقاق، لم يعد هناك مجال للتراجع، كان الظلام حالكًا، أكملت إلى المجهول نفسه، لم أكن أعلم ما الذي سيحدث، لكنني لم أكترث حقًّا، سمعت وقع الخُطى خلفي، التفتُّ، نعم كان ذلك اللعين الذي يطاردني، لكن في تلك اللحظات كان هناك شيء غريب، لم يهرب، ظل واقفًا أمامي كأنه امتداد لظِلِّي، يداه داخل المعطف.

سمعت ذلك الصوت المخيف الذي انطلق من بين شفتيه: "مراد، كيف حالك اليوم؟"

رأيته يُخرج يده من معطفه حاملًا شيئًا يلمع وسط الظلام، كان مسدسًا صوَّبه نحوي، ذلك اللعين أراد قتلي، "أين ذلك الغبي بيير؟ هل هرب؟ هو خائف لم يتبعنا".

لم أكن خائفًا من الموت بقدر ما كنت خائفًا ألا أكتشف حقيقتي، تقدَّم حاملًا المسدس، مرت ثوانٍ كافية ليُطلق فيها النار، لكن فجأة سمعت صوت ضربة قوية أسقطته أرضًا!

أخذت أنفاسي وظهر بيير خلف الرجل الملقى على الأرض حاملًا في يده عصا، لقد ضربه على رأسه في الوقت المناسب، ظل يراقبه بأنفاس متلاحقة كأنه كان يركض، أم تراه خائفًا مثلي؟

"أيها الغبي... كاد يقتلني، لقد أخفتني حقًّا، أين كنت؟ تأخرت".

"سيدي هناك أمر مخيف يحدث هنا، لا أكاد أتمالك أعصابي، إنه يشبهك! نسخة طبق الأصل منك، عند خروجي من المقهى وجدته يقف بالخارج يراقبك ذلك اللعين، كان مراد توفيق واقفًا أمامي يراقب مراد توفيق بالداخل، أصابني الخوف والجنون، من هذا؟ لماذا يشبهك بهذا الشكل المخيف؟! أنا متوتر جدًّا سيدي، متوتر وخائف".

"لا عليك، الأمر مخيف لي أيضًا، لكن لا عليك، سنفهم كل شيء، هيا أحضر السيارة لا بد من استجواب هذا اللعين".

جاء بيير بالسيارة ووقف أمام الزقاق، طلبت منه أي شيء لأقيِّد ذلك اللعين، فأحضر بعض الأربطة البلاستيكية، قيدناه معًا، ثم أمرته أن يفتح الباب الخلفي للسيارة وينتظرني، كان الرجل ملقىً على الأرض يسيل من رأسه بعض الدم الأسود المائل للزرقة.

حملته لأدخله في السيارة، كان في حجمي، وضعته في المقعد الخلفي، وصعدت للأمام لننطلق بالسيارة وأنا أخاطب بيير:" ماذا سنفعل؟ إلى أين؟".

لأُفاجأ أن بيير غير موجود، "أين اختفى؟"، بيير ذلك الأحمق الجبان قد هرب، تركني وذلك اللعين وحدنا وسط هذا الظلام والبرد.

لا ألومه فالأمر مخيف حقًّا، ربما أخافه كل ما حدث، أو ربما كان خائفًا ممَّا كنت سأُقدم على فعله، لم يُرد أن يكون جزءًا ممَّا سيحدث، تفهمت ذلك جيدًا، كان هناك غضب بداخلي يكفي لحرق ذلك العالم كله.

"حسنًا، أين سآخذ هذا اللعين؟".

مجددًا تأخذني الأحداث إلى حيث البداية، كأن تفكيري كله اقتصر على القصر، هناك سآخذه، ذلك المكان المهجور كان أفضل مكان يسمح لي باستجواب ذلك اللعين ومعرفة كل شيء.

كان الوغد ما زال فاقدًا الوعي، ما سهَّل عليَّ حمله إلى داخل القصر والنزول به للقبو، حيث الغرفة السرية التي كانت يومًا ما مأوايَ في قصر هشام توفيق، عدت مجددًا للمكان الذي وُلد فيه مراد توفيق، ارتسمت الغرفة بأجواء الكآبة والغموض، كانت الممرات التي تقود إليها مظلمة ومليئة بالصدأ، انبعثت رائحة الرطوبة والعتمة من كل زاوية.

جدرانها مغطاة بالحجر والأسمنت، توسط سقفها مصباح قديم متأرجح مع تيار الهواء البارد، ثبَّتته في مقعد بالغرفة وبحثت عن وسيلة لأجعله يفيق، ملأت سطلًا وجدته في الغرفة بالماء، وأحضرت بعض أدوات التعذيب كانت على طاولة خشبية متعفنة، سكبت الماء البارد عليه فاستيقظ فاتحًا عينيه من دون أي ردة فعل!".

"ما هذا اللعين؟!".

لم تبدُ على وجهه أي علامة من علامات الخوف أو الرهبة، لم يشعر بأيٍّ منها على الإطلاق، كان هادئًا وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة مريبة، رمقني ذلك اللعين بتلك النظرات الواثقة كما لو أنه كان يريد مني اختطافه وجلبه إلى هذا المكان بالتحديد.

لم أنطق بكلمة، فقط اكتفيت بالجلوس أمامه والنظر إليه، كان الشبه مفزعًا، كأنني أنظر إلى مرآة، صورة تطابَقْنا أنا وهو عليها، وسط تلك الأجواء المظلمة والسوداء تحدث فجأة:

"مراد، لماذا تلك القيود؟ أنا لن أهرب، أم أنك خائف مني؟ أنا أتيت إليك بنفسي، أتظن حقًّا أني أريد الهرب منك؟! لا تخف أنا لم أعتدك هكذا".

سألته بحزم وقوة:

- "مَن أنت؟ كيف تشبهني إلى هذا الحد؟ لماذا تلاحقني؟ أجب".
- "لا، أنت لا تسأل الأسئلة المهمة يا مراد، دعك من كل هذا الهراء، أخبرني كيف تشعر الآن؟".
- "كُف عن المماطلة وتضييع الوقت، الآن لن ينقذك أحد مني، لا أحد هنا سيساعدك سوى كلماتك التالية، لذا أنصحك باختيارها جيدًا".

كان المصباح يتأرجح مع الهواء على وجه ذلك اللعين، مُسلِّطًا الضوء على تفاصيله بشكل غامض ومرعب، ابتسامة مرعبة عَلَت وجهه، وصوت ضحكاته المرتفع بدأ بإصدار صدى مخيف خلفه.

- "نبيل، اسمي نبيل يا مراد، تعرف ذلك الاسم جيدًا، آاااه... نسيت، للأسف أنت لا تتذكر جيدًا، صحيح؟".
- "إذن تعرف ماذا حلَّ بي، أنتم السبب أليس كذلك؟".

كان ذلك اللعين نبيل يعلم جيدًا من أكون وما الذي حدث،" من يكون؟! ماذا أصنع به؟ هل أعذبه؟ أم أذيقه بعضًا من الألم حتى يعرف أنني لست هنا للمماطلة وإضاعة الوقت، كان يجب أن يعي جيدًا أني مستعد لفعل أي شيء من أجل معرفة الحقيقة، ويبدو أنه يملك الحقيقة خلف كل شيء، ذلك اللعين لا بد أن أكسره وأجعله ينهار حتى يعترف بكل شيء".

وسط أجواء الغرفة المرعبة وصوت العاصفة خارج القصر وضوء الرعد الذي يهزُّ حوائط الغرفة، أرغمني على فعل ذلك، سددت له بعض اللكمات واللعين استمر في الضحك، بل إنني شعرت أنه مستمتع بما أقوم به.

تسلل الإحباط والغضب إلى نفسي مع استمراره بالتصرف بشكل استفزازي، مع كل لكمة وجهتها كنت أشعر بالضيق والتوتر، لم أكن أريد التصرف بتلك الطريقة، لكنه استمر في

الضحك، ما زاد من حدة الغموض والتوتر في الغرفة، كان كابوسًا مظلمًا أعيشه، استمر بالضحك ولم يعبأ لأي شيء، بصق بعض الدماء من فمه **وعلَّق قائلًا:**

- "مراد، تعتقد أن هذا سيجدي نفعًا؟ أنا هنا بإرادتي، ألم تلاحظ ذلك بعد؟".

قفزت إلى الأمام وأمسكت بكتفيه وهمست بصوت محموم:

- "كفَّ عن الألعاب، أنا لست هنا للضحك، أخبرني بكل شيء؟".
- "مراد عزيزي، لا بد أن تسأل الأسئلة الصحيحة، وأنا سأجيب، أعدك بهذا".

ذلك المدعو نبيل أغضبني حقًّا، التقطتُ مطرقة من على طاولة التعذيب وضربت يده بقوة فكُسر أحد أصابعه، سمعت صوت الكسر.

- "ستكسر عظامي كلها وسأحرق لك قلبك يا مراد من دون أن أحرك ساكنًا، ومن دون أن أتحرك من مكاني".

عاودت ضربه بعنف لعلَّه يجيب ويترك تلك اللعبة الوضيعة التي حاول بطريقة ما إقحامي بها، العنف لم يكن حلًّا ولكن كان ذلك ما اضطررت لفعله، نبيل ذلك اللعين استمر في الضحك والتلذذ، بل إنه كان يتوق إلى المزيد من الألم!

ذلك المجنون صرخ ضاحكًا:

- "آاااه، الآن بدأنا القليل من المتعة مراد، آاااه".
- "أيها اللعين، أنا لست هنا للَّعب، مع مَن تعمل؟ هل أنت أحد أتباع يوسف عز؟ تكلم، من الأفضل لك أن تتكلم".

تغيرت ملامح وجهه، شعر بالغضب وكأنه تحوَّل إلى شيطان، **وردَّد بصوت غاضب صارخًا:**

- "يوسف عز! يوسف عز من هذا؟! مراد عزيزي، لماذا؟! لماذا تجعل من ذلك المنحط عدوًّا لك؟! لا أحد يجرؤ أن يكون عدوًّا لمراد توفيق، إذا أردت مني الحديث أرجوك لا تستفزني مجددًا، من هذا ليكون عدوًّا لنا؟!".
- "كفَّ عن اللعب معي، أخبرني بالحقيقة أو انتظر ما سأفعله".

بدأ يغضبني، ربما لم أُخِفْه كما ينبغي، عاودت ضربه بلكمات جعلته يقطر دمًا، لقد أرهقني ذلك اللعين فصرخت في وجهه:

- "اسمع يا هذا... أنت الآن ملكي، وفي مملكتي، أنا على استعداد أن أذيقك كل أنواع العذاب، لقد ضقت ذرعًا بما رأيته، من الآن لن أتردد في الإنهاء على حياتك فقط لإزاحة بعض الذي عانيته، تفهمني نبيل؟".

ابتسم بتكلُّف وبدأ بالضحك مجددًا، كان واثقًا، تلك الابتسامة اللعينة على وجهه جعلتني أمسك بسكين من على الطاولة لأضعها على رقبته، كنت على استعداد أن أفعلها حقًّا، رغم كل ذلك **ورغم التهديد قالها بوضوح:**

- "الآن تظهر حقيقتك، قد تكون فاقد الذاكرة لكن أنت في النهاية مراد توفيق".
- "إنها آخر فرصة لك، مع مَن تعمل؟ لماذا تلاحقني؟ ما الذي حدث لي؟ أجب الآن، أقسم أنها فرصتك الأخيرة".
- "حسنًا سأجيبك، اهدأ قليلًا مراد".

نظر لي بتأنٍ وثقة كأنه كان يعلم ما الذي سيجبرني على الهدوء والاستماع إليه، أغمض عينيه للحظة وفتحهما وهو ينظر لي **ويقول بصوت هادئ وقوي:**

- "كيف حال ليلى؟ ها، أجبني".

قالها واستمر في الضحك، "اللعين كان في عقلي! كيف له أن يعرف ليلى؟ أجبرني على الرجوع والجلوس مجددًا، بدأ في الحديث الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر. ليلى حقيقية إذن، لكن كيف عرفها نبيل؟ هل لاحقني؟ كيف له أن يصنع ذلك الوهم؟ هل كان خلف كل شيء؟".

"انظر، إنها السكين نفسها التي طعنتك بها، ألا تتذكر؟ نعم، هي نفسها، أتعرف ماذا يعني هذا؟".

قالها وابتسم بشكل مريب، أصابني التوتر وبدأت أفقد صبري وقدرتي على تمالك نفسي، بعد أن كنت أظن أنني أتحكم في زمام الأمور، أصبحت على وشك الهجوم على ذلك اللعين، أصوات ضحكاته تزعجني، وكلماته تصيبني بالجنون، كيف له أن يعرف كل هذا؟!.

- "مَن أنت حقًّا؟".
- "أجبتك، أنا نبيل، لا تقلق أنا وأنت يا مراد واحد، كلانا يشبه الآخر، مراد عزيزي لا تقسُ على نفسك، فقط استسلم لطبيعتك، كلنا واحد وأنا هنا لمساعدتك".
- "اصمت أيها اللعين، أنا لا أشبهكم، أنا لست مثلكم، لم أقدم روحي للشيطان، لم أعقد الصفقات، لم أقُم بشيء، أنا لست مثلكم! اصمت أيها اللعين لا تتحدث".
- "ظللت تلاحقني، ماذا أردت يا نبيل؟ تكلم".
- "كنت أريد أن أرى ماذا ستفعل، بالفعل لم تخيِّب ظني بك، مراد أنا أعرف الحقيقة، لا مجال للعودة، الأمور تغيرت إلى الأبد".
- "لماذا أردت قتلي إذن؟".

ضحك ساخرًا ثم عاود الحديث:

- "أنا لا أريد قتلك يا مراد، أنا وأنت واحد".
- "أنتم مجرد مجانين مظلمين، لا شيء يهمكم سوى شهواتكم والشر الخالص في أنفسكم، فقط".
- "ها، وأنت لست كذلك، لست مثلنا؟ تتحدث عن الأخلاق والمبادئ، ما فائدتها، جعلتك هنا في النهاية وتفعل ما تفعله الآن؟!".
- "أنا لست وحشًا، لديَّ مبادئ وقواعد أحتفظ بها".
- "إذن اليوم سأجعلك تكسرها حتى تستطيع معرفة الحقيقة".

ظل هادئًا كأنه يتأمل باستغراب شديد ما أقوله، وكأنه لا يستوعب أني لست مثلهم حقًّا، ثم فجأة تعالت ضحكاته وملأت القصر وسط أصوات الرعد والمطر في مشهد مرعب.

- "ما الذي تريده مني؟ لم أعد قادرًا على تحمُّل هذه الألاعيب يا نبيل".
- "الآن أنت تثيرني للضحك حقًّا، أنت مختلف؟ مراد أنت الشر نفسه، لأنير بصيرتك قليلًا لعلك تدرك سبب ضحكاتي هذه... ما الذي منعك من مساعدة الفتاة في قصر يوسف عز؟ اكتفيت بالهرب أم كنت تخشى أن تتحمَّل نتائج أفعالك؟!

بما كنت تفكر وأنت تتركها لمصيرها المظلم؟ تلك البريئة لم تزعجك صرخاتها وأنت تهرب، الآن أنت ذلك اللعين الأخرس، نعم عزيزي، أنت لست بهذه البراءة، أريدك أن تتخيل كمَّ الألم والمعاناة اللذين تعرضت لهما تلك الفتاة، أنت تعلم جيدًا، فأنت من وضع تلك الطقوس والممارسات لأتباعك".

- "لا تلعب بكلماتك، ماذا حدث لها؟".

نظر لي بابتسامة غامضة ولم يجب، عمَّ الصمت الغرفة، لكن بقي الصوت الصاخب للماء المتساقط من السقف المشقوق، يعزف سيمفونية الرعب في هذا الفضاء المظلم، وعَلَت الرائحة الرطبة المكان، تجاهلني وسط هذا المشهد المهيب، خفض رأسه وكأنه ينظر إلى رقعة سوداء على الأرض، ظل يتمتم ويحرك رأسه كأنه يحدث نفسه السوداء، ما الذي يدور في رأس ذلك اللعين؟ الصمت، لقد بدأ بالتسلل داخل عقلي، كيف يسرد لي الأمور بتلك الطريقة؟ هل أنا حقًّا بذلك القبح؟! أم هربت خوفًا.

- "لماذا الصمت يا مراد، هل فقدت الكلمات؟ أم أنك لم تكن ترى جيدًا كيف تسير الأمور؟".
- "ها، الآن بدأت تفهم، أنت هنا في عالم آخر، عالم نحن من يسيطر عليه، تأكد يا مراد لا يوجد مفر".
- "اصمت أيها اللعين، لا تتحدث، لا أريد سماع صوتك، دعني أفكر ماذا أفعل بك الآن؟".
- "مراد عزيزي، الآن تريد الصمت أم أن كلماتي أثارتك؟ دعني أُذكرك بزينة، هل تتذكر ماذا فعلت بها؟ بل دعني أذكرك بهشام توفيق نفسه، كيف مسحت إرثه وقتلت ابنته وأطحت بنسله، مُعلمك، استوليت على كل شيء، إرثه، أمواله، جماعته، بعد أن أدركت كل شيء أدركت حقيقتك، الآن تحاول الهرب، كل ما كان يهمك هو الهرب، لكن ممَّا تهرب؟ في الواقع حتى أبناء زينة الأطفال الصغار لم تفكر بهم، لم يشغل تفكيرك أن تعيد لهم إرثهم، حقوقهم، بعد أن أخذت منهم كل شيء، تركتهم مع اللعين بيير، أنت تجيد هذا، تجيد الهرب يا مراد".
- "كيف؟! كيف تعلم كل هذا؟".

كلماته أصبحت أكثر تأثيرًا، لقد أشعل الظلام بداخلي، العالم دار وبدأت أفكر في التخلص من ذلك اللعين، ذلك الشيطان نبيل، أمسكت مسدسه وصوبته نحو رأسه ومن دون أي تردد أطلقت النار عليه، لكن المسدس كان فارغًا، نبيل لم يكن يريد قتلي، مسدسه فارغ، نبيل أراد كل هذا، أراد تدميري من دون أن يطلق رصاصة واحدة.

ظل يضحك بشكل متسارع وجسده يتلاعب بالظلام المحيط، بدا كما لو أنه يتلاعب بالزمان والمكان، لم أعد أستطيع الاستماع لكلماته، بدأ العالم يدور حولي، لم أدرك حقيقة الأمر، ولكن ذلك الشيطان تملَّكني، حاول جاهدًا إعادة كل شيء إلى طبيعته، حاول أن يُشعرني أني أنتمي إلى ذلك المكان، وذلك الظلام قدري الذي اختاره مراد توفيق قبلي، كان تأثير كلام نبيل والأحداث المروعة يجعل الظلام يتسلل إلى أعماق روحي، بدا وكأنه يغلفني بمشاعر من اليأس والضياع وسط ذلك الظلام".

- "لا تقاوم يا مراد، اسمعني جيدًا، أنت مصيرك هنا، في هذا العالم الذي اخترته. لا يوجد مفر".

قالها ثم أضاف:

- "مراد عزيزي، ألم تعجبك حقيقتك بعد؟ دعني أخبرك لماذا طعنتك ليلى".

تسارعت نبضات قلبي وتجلت أمامي كل كوابيسي وآلامي، بينما علا صوت الرعد خارج القصر، كنت خائفًا ممَّا سيقوله نبيل، لكني كنت في أَمَسِّ الحاجة لأعرف الحقيقة".

"لقد تركتها يا مراد، تركتها في يوم زفافكما، تركتها لأن أخويها وإلياس والدها قد خططوا لقتلكما معًا، لم يكن ذلك العجوز يوافق على إتمام الزفاف، كان مقدرًا أن تموت، لكنك هربت، خفت أن تصاب ليلى بأذى، تركتها ولم تخبرها حقيقة ما حصل، أذيتها بإرادتك، لقد طاردوك لكن أنا ساعدتك، مات الأخوان في حادث وأصيب العجوز، وتحمَّلت أنت كل شيء، كانت تلك أنسب طريقة لأضمَّك إلى جانبي مراد، أردت أن أصنع منك معجزتي، أنت إرثي أنا يا مراد، أنت أنا، وأنا أنت".

تسللت كلمات نبيل إلى أعماقي مثل سيف حاد، فتحت جروحًا قديمة وجلبت ذكريات مؤلمة، أصبحت عاجزًا عن الكلام، بعيون مليئة بالصدمة والغضب **قلت له:**

- "لمَ فعلت ذلك؟ لم أكن أنا الذي يجب أن يعاني!".
- "لقد أنقذتك من الموت، أعطيتك فرصة لحياة جديدة. كانت تلك الفتاة البريئة ضحية، وأنت الآن لي، معًا سنمتلك كل شيء، أنت جزء من هذا العالم المظلم".

واصل حديثه وعلى وجهه ابتسامة غامضة، وبدا وكأنه يتلذذ بالتأثير الذي يملكه عليَّ:

- "في النهاية نحن تجسُّد لإرادة واحدة يا مراد، إرادة الظلام، تذكَّر ذلك جيدًا، لقد عدت لي مجددًا عزيزي مراد".
- "لم يعد أحد قبلي؟ لا أظن أنني الوحيد، يبدو أنه لا يوجد أحد امتلك فرصة للمغادرة أيضًا".
- "ولا أنت أيضًا يا عزيزي".

- "جميعهم يأتون، أشمُّ رائحة الخوف بهم، لكن أنت يا مراد كنت مختلفًا، شممت بك رائحة الأمل! ما نوع الرجل الذي يلجأ للشيطان باحثًا عن الأمل!".
- "شخص بائس مثلي بالتأكيد".
- "شخص مثلك، إرادتك ، أنت رجل يستحق الظلام ، لقد كنت خلاصك، أنت إذن أصبحت لي يا مراد".
- "بأي ثمن؟!".
- "سيكون الثمن أسوأ، أسوأ من أني لم أنقذك منذ البداية، كنت ميتًا وأنا أحييتك يا مراد، إنها لعبة الانتقام ".
- "حياتي ليست لعبة".
- "مصير العالم يقع بين أيدينا، التوازن واللعب بين النور والظلام، اليأس والأمل، وأنت يا مراد ستكون خليفتي".
- "سيكون من دواعي سروري أن أخيِّب ظنك أيها اللعين".

كلمات نبيل ترددت في ذهني، شعرت أني أصبحت جزءًا من شيء أكبر وأظلم، الظلام التفَّ حولي، والقرارات التي أتخذها في حياتي جعلتني أفكر في معنى وسبب وجودي في ذلك العالم المعقد".

- "لن أنسى كلامك يا نبيل، لكنني لن أسمح للظلام أن يسيطر عليَّ مجددًا، سأجد طريقي خارج هذا الضباب".

ابتسم مجددًا بعد أن كان جاد الملامح أسود الوجه أحمر العينين، اعتلت وجهه تلك الابتسامة البغيضة، **وردَّد بصوت هامس:**

- "الظلام يأتي للجميع، ولكنك الآن تفهم كيف يمكنك السباحة فيه بدلًا من الغرق، لا تنسَ مراد أنا هنا لأجلك، وأنت الآن جزءٌ مني، آه نسيت أن أطلعك على أمر مهم حسب توجيهاتك لي سيدي مراد".

قالها بسخرية وبضحكات مستفزة علت وجهه وأضاف:

- "دكتور زهير يرسل لك تحياته من الجحيم".

وأطلق ضحكاته المجنونة التي صدحت في جميع أنحاء قصر الظلام، بجواره جلست أفكر في كل شيء، كانت كلماته كالصاعقة، أصابتني وشلَّت كل ما هو إنساني بداخلي، حسنًا أردتم مراد توفيق، إذن هنيئًا لكم... ولكن ليس بعد، أخذت القرار بأني سأحرق كل شيء، لن أكون جزءًا من ذلك الظلام.

في تلك اللحظة فهمت الحقيقة، أدركتها، كان عليَّ أن أفهم أنه لم يكن الفريسة أو الضحية وأنا الصياد، كان كل شيء مخططًا له منذ البداية، جعلني أبحث عن كل شيء، ذلك اللعين مراد توفيق، تذكرت رسالته التي تركها لي:" ابحث عني ورغم كل ما ستراه أعدك أن تبتسم بالنهاية".

لكن كيف لي أن أبتسم وسط كل ذلك، حسمت أمري، سأحرق كل شيء، خرجت تاركًا ذلك المجنون نبيل خلفي في الغرفة غارقًا وسط أصوات ضحكاته ورائحة الدم والتراب، أخذت السطل ومن السيارة بالخارج ملأته بالجازولين وبدأت بسكبه على أرض القصر الحوائط والأثاث وكل شيء في طريقي، صاعدًا نحو مكتبي بالأعلى أردت أن أمحو كل ذلك التاريخ الأسود، لأكسر تلك اللعنة إلى الأبد.

واقفًا بالشرفة في مكتبي ألقيت آخر نظرة على تلك الأرض، تاركًا خلفي كل شيء، على أهُبَّة الاستعداد لأحرق كل شيء هنا، نظرت إلى السماء لعلِّي أجد ما يلهمني الهدوء بعد ما فقدت كل ما هو إنساني في حياتي، شعرت بالهواء العاصف على وجهي، والمطر تساقط فوق رأسي والبرق يضيء السماء قبل أن يقصف رعده، أخذت أنفاسًا بطيئة والتفتُّ لألقي بالشعلة لتحرق كل شيء هربت من النسيان لأجله.

فجأة إذا بنبيل يركض نحوي ويرتطم بي لنهويَ معًا من الأعلى وأنا أرى النار تلتهم كل شيء، أنا ونبيل نسقط معًا في آخر مشهد لحياة ذلك الشيطان مراد توفيق.

انتشرت ألسنة اللهب لتلتهم كل زاوية من القصر، والدخان يتصاعد، الرياح تحمل رائحة الحريق والمطر يتساقط بغزارة، وسط هدير الرعد وبرقه المتواصل.

اللهب يتسارع ويتسلل إلى كل زاوية، ترى قطع الأثاث تتفحم والأبواب الضخمة تتحول إلى رماد، الغيوم الداكنة تلفُّ السماء، والمطر يتساقط من السماء المظلمة.

هناك، في ذروة الهاوية، جميع محاولات الهرب والتمرُّد تحولت إلى رماد، مع كل قطرة مطر، واللهب يأتي في النهاية ليطمس كل شيء، ويعمِّق الظلام على ضفاف الألم، وفي قلب الليل يتلاشى كل شيء.

الفصل الثامن

كان مشهدًا تقشعرُّ له الأبدان، ألسنة اللهب التهمت كل شيء، الماضي المظلم، التاريخ الأسود لعائلة هشام توفيق التهمته ألسنة النار المتصاعدة وسط الأمطار، السماء التي امتلأت بالدخان الكثيف جعلت الفضاء حول القصر غريبًا، لا نجوم ولا قمر، فقط اللون الأسود ممزوج بألسنة النيران المتصاعدة من حريق القصر، كانت الليلة الأخيرة لعائلة الشر، وما كانت لتنتهي بطريقة أخرى غير الظلام الذي ابتلع كل شيء حوله.

مراد الذي حاول جاهدًا الهرب من النسيان ليتذكر، مراد الذي كان في صراع منذ البداية بين ماضٍ مظلم وأسود، ماضٍ رسم خطاه الشيطان نفسه، ومستقبل لم يستطع تحقيقه، رغباته وتطلعاته للحياة لم تكن لتتحقق بسبب الماضي الذي لم يستطع التخلص منه، لم يكن هناك مخرج سوى أن تنتهي حياة مراد توفيق.

بعد الأحداث المأساوية والظلام الذي خيَّم على القصر، ظهر نور الصباح وأشرقت الشمس وسط السحب والغيوم السوداء، التي اختلطت برماد الماضي، على ما تبقى من حطام قصر الظلام والشيطان.

أحرقه مراد ليتخلص من كل شيء، ليتخلص من ماضٍ لم يستطع فهمه أو معرفة الحقيقة خلف كل شيء، لم يستطع أيضًا التمسُّك بالحاضر، ضحَّى في طريقه للهرب من النسيان.

****

في صباح اليوم نفسه تفاجأ بيير بمكالمة غيَّرت كل شيء.

"مرحبًا بيير، معك محامي السيد مراد بِك توفيق، في الحقيقة يؤسفني إبلاغك بوفاة السيد مراد إثر حادث مروع مساء أمس، قد خاطبتنا الجهات المختصة بعد البحث حول حريق قصر هشام توفيق، ووجود جثة السيد مراد في الموقع، الحقيقة كانت رغبة السيد مراد أن أتواصل معك لأطلعك على مستجدات ووصية قد أقرَّها لدينا، وأكد ضرورة إطلاعك عليها فور تأكيد خبر وفاته، فأنت الآن الوصي على أبناء مراد توفيق حسب ما ورد إلينا، لقد ترك لك الثُّلث من التركة، والباقي للأبناء، نظير رعايتك لهم.

كذلك قدَّم ملفًا كاملًا يُدين بعض الممارسات والشخصيات السيادية لتورُّطها في تشكيلات منافية للآداب والأخلاق الاجتماعية والممارسات اللاحقوقية واللاإنسانية، متهمًا جماعة سرية يقودها يوسف عز الدين، وتعدُّ تلك القضية الأشهر في العقود الأخيرة، وسيُفتَح تحقيق في هذا الموضوع، الآن سيد بيير نطلب منك الحضور مع الأبناء إلى مراسم الدفن بمقابر العائلة، واستكمال الإجراءات القانونية لدينا".

لم يستوعب بيير الأمر، كان شيئًا في منتهى الغرابة أن يتلقى تلك الكلمات، كانت تلك هي الرسالة التي لم يتوقعها أحد على الإطلاق، حتى بيير نفسه أصيب بالدهشة لما سمعه، كانت الدهشة والحزن مختلطين معًا في مزيج غير متوقع، مزيج جعل من الصعب فهم الأحداث والتفاصيل الغائبة في المشهد.

بيير الذي كان مشرفًا على صنع مراد توفيق، بيير الذي كان يعلم جيدًا مقدار الظلام والشر الكامن في روح مراد توفيق، بيير الذي كان شاهدًا على كل جرائم عائلة توفيق، أصيب قلبه بالحزن وعقله بالذهول، لأنه لم يدرك أو يتخيل أن رجلًا مثل مراد توفيق يمكن أن يتصرف بتلك الطريقة، بل إن كل تصرفاته وأفعاله كانت تشي عكس ما قد سمعه منذ لحظات.

الأفعال دائمًا ما تُصرِّح بالنوايا الدفينة للإنسان، فهي تُظهر دواخلنا بشكل أو بآخر.

تلقى بيير تلك الرسالة وهو يقف في شرفة مدخل المنزل يراقب الطفلين يلعبان في الساحة الخضراء أمامه، لم يعرف كيف يوضح لهما كل تلك الأمور، هو نفسه لم يستوعب الأمر.

ظل واقفًا يتذكر مراد توفيق، ذلك الشخص الذي قَلَبَ كل الموازين بوفاته، وغيَّر واقع الظلام والشر في آخر لحظات حياته، ليُعيد صياغة الحاضر ويُظهر الحقيقة للجميع، مراد الذي اعترف بحق الطفلين وأعاد لهما جزءًا منه، مراد الذي لم ينسَ فضل بيير في حفاظه عليهما، بل كافأه في النهاية بأن ترك له الوصاية وجزءًا من التركة والإرث.

تلك الأفعال التي لم يصرح بها، ولم يكن مراد نفسه يعرف تفاصيل ما صنعه، وما أورثه بعد وفاته، كان من الممكن أن يتغير كل شيء في تلك القصة، لكن الأقدار والرحلة التي خاضها مراد كانت تحت رعاية القدر، لم يكن مراد لينعم بتلك الحياة، كان من الضروري أن تنتهي تلك القصة بنهاية مراد نفسه، كل تلك الأفكار كانت تتصارع في ذهن بيير، الذي لم يتمكن من معرفة حقيقة مراد حتى بعد وفاته.

كل ما دار من أحداث، وكيف تصور مراد نفسه والآخرون حوله، كان منافيًا لما قدمه في النهاية، لم يستطع أحد فك لغز مراد توفيق حتى مراد توفيق نفسه، لم يستطع فعل ذلك.

تقدم بيير نحو الطفلين وهو يذرف دموع الحزن التي لم يستطع إخفاءها أو حجبها عن السقوط، احتضنهما بكل حب وعطف، في النهاية تلك الأرواح البريئة لم تكن لتستطيع تحمُّل كل ذلك الظلام.

صارحهما بحب مراد لهما، وكيف كان يحاول الحفاظ عليهما بعيدًا عن مشكلات الأسرة والخلافات التي قد تضرُّ بهما، أخبرهما بمدى اهتمامه بهما الذي كان واضحًا في وصيته، وأنهما كل ما كان يهمُّه.

بتلك الكلمات استطاع بيير إسقاط بعض الهدوء والراحة على روح مراد توفيق الضائعة، استعدوا لمراسم الجنازة، واصطحب بيير الطفلين لتقديم العزاء، وصلوا إلى مقابر العائلة بحضور مندوب مكتب المحاماه، وبعض رجال الشرطة، كانت جنازة صامتة.

التفَّ الحاضرون أمام قبر مراد توفيق مودعين ذلك الشخص المجهول والغامض، آخر مشهد ارتسم في قصة مراد، بيير يُلقي تلك الوردة الحمراء على قبره، والأطفال أيضًا ودَّعوا والدهم بها، ثلاث وردات حمراء فوق جسده ثم التراب، كان ذلك مشهد النهاية الذي أُغلق به ملف عائلة هشام توفيق، وفارس النور والظلام مراد توفيق.

****

في الطرف الآخر من المدينة داخل جدران "المورستان" العتيق، وفي أجواء من الغموض والخيال دار الحوار التالي بين طبيب وممرض يتحدثان بشأن مريض هارب من الجدران العالية والحراسة المشددة للمكان، استطاع الخروج من دون أن يشعر أحد، لكن بعد أشهر من هروبه دخل مستشفى بالقرب من المورستان، كانت ألسنة النار قد التهمت أجزاء من جسده، وأصيب بحروق دخل على أثرها المستشفى وحُجز بها بعد أن وصل إليها بنفسه مستغيثًا، وبعد أسبوعين من العلاج استفاق ليُفصح عن هويته وأنه هارب من مورستان المدينة، ويريد العودة مجددًا.

كان الطبيب جالسًا خلف مكتبه يحتسي القهوة، ويراجع ملفات المحجوزين في عنابر المورستان، عنبر الديوان، الغرفة الخامسة عشرة، الغرفة الخاصة بالمريض الهارب.

وفي أثناء تفقده باهتمام إذا بالممرض يدخل عليه المكتب مُحضرًا تقرير المريض.

"هل انتهيتم من تقرير الطب الشرعي الخاص بالمريض المحجوز في الغرفة الخامسة عشرة".

"نعم، لقد استلمت التقرير، سأطلعك على ما ورد به حالًا".

"جيد، ما الأخبار؟".

"التقرير يفيد أنه توجد درجة من الحروق تغطي معظم أجزاء الجسم، هناك أيضًا آثار طعنة قديمة في الصدر، لقد حاول الانتحار من فترة واستطعنا تدارك الأمر حينها بصعوبة بالغة".

"ذلك المريض جعل المورستان كله في حالة فوضى حقًّا!".

"المريض صعب جدًّا، لا يتحدث كثيرًا مع الأخصائيين، حتى إن تقارير المعمل تنفي وجود آثار الأدوية الموصوفة له في الدم، ما يعني أنه بطريقة أو بأخرى لا يتعاطى تلك الأدوية رغم حرص التمريض على ذلك، كما أفاد التقرير بوجود بقايا من وشم غريب مرسوم على كتف المريض لم يكن موجودًا في التقرير الأول له، الأغرب أنه بعد فترة كبيرة من احتجازه اكتشفنا أن النزيل دكتور نفسي، وكان يعمل في إحدى المدن الساحلية".

"السجلات تفيد أنه لا أقارب له أو أسرة، ولا وجود لأي سوابق أو قضايا في صحيفته الجنائية، كذلك لا وجود لحسابات بنكية أو مستندات باسمه، لا يوجد معه غير مجموعة من الخطابات وأوراق قديمة وخاتم فضي محفور عليه اسم ليلى، هذا كل ما يوجد مع النزيل يا دكتور".

"ما اسم المريض؟".

"نبيل، دكتور نبيل، بالطبع يا دكتور كتبتَ تقريرًا مبدئيًّا عن الحالة منذ عام، لكن إدارة المصحة تريد منك الإشراف عليه شخصيًّا".

"حسنًا، أريد كل المستندات والتقارير الخاصة بالحالة على مكتبي، وجهِّز الحالة، أريد مقابلتها اليوم".

****

بدت الأحداث وكأنها تتقاطع مجددًا، حياة كلٍّ من نبيل ومراد لم تكن مختلفة، بل تشابهت وتماثلت في الكثير من الأشياء.

جهَّز الممرض نبيل للعرض على د. زهير، كان مكبَّلًا، لم يكن يرغب أحد في المزيد من الدراما والشغب، يكفي ما فعله نبيل على مدار إقامته في المورستان، فقد كان أصعب النزلاء وأكثرهم حدة وعنفًا.

جلس نبيل أمام مكتب د. زهير، يداه ترتعشان، لم تكن آلام الحروق أكبر من الألم الذي كان يعتصر رأسه، بدا عليه الانزعاج، كان كل ما يريده هو الهدوء والراحة بعيدًا عن جلسات الأطباء وأسئلتهم المتكررة حول ما يشعر به.

نبيل لم يكن بحاجة إلى تلك الجلسات، كونه طبيبًا نفسيًّا جعله يمر بالكثير قبل أن يصبح أحد نزلاء المورستان، ذلك الشعور بالوحدة والانفراد بعيدًا عن أسئلتهم الغبية والمتكررة، والأدوية التي لا تقدم سوى الخمول والسكينة المصطنعة، كان نبيل يعلم أنه لا فائدة منها، لذلك كان دائمًا ما يحاول تجنُّب تناولها، ويخفيها من دون علم الممرضين والأطباء.

ذلك السجن الفسيح الذي لم يستطع أن ينعم بالراحة والهدوء فيه، محاولاته المتكررة للانتحار وإنهاء ذلك العناء الذي أثقل قلبه وأعمى عقله الضائع، جعله ذلك أخطر وأعنف النزلاء في المورستان.

جلس أمام د. زهير صامتًا يراقب كل تحركاته، لم يكن يرغب في الحديث، الغرفة مظلمة الأركان يتوسطها ضوء خافت تسلل بين شرائح الستائر المنسدلة على النافذة خلف المكتب، لم يكن يزعجه الهدوء، لكن الصمت الذي اعترى الأجواء حوله جعله يصاب بالتوتر، ذلك التوتر الذي لاحظه د. زهير.

كان نبيل يفرك أصابع يده المقيدة إلى ذلك الكرسي المتحرك الذي أجلسوه عليه، مُحركًا قدميه ذهابًا وإيابًا على أرضية الغرفة، مُصدرًا ذلك الصوت المزعج، تلك الحالة التي بدأت تتصاعد تدريجيًّا لولا تدخُّل د. زهير:

- "كيف حالك يا نبيل؟ تبدو منزعجًا بعض الشيء".

لم يرد، توقف عمَّا يفعله واكتفى بالنظر إلى د. زهير الذي **قال**:

- "أعلم أنك لا تحب الحديث، لكن الوضع الآن مختلف، كن واثقًا من ذلك، فأنا لا أخاطب نزيلًا أو مريضًا، أنا أودُّ الحديث مع دكتور نبيل، هل يمكنني ذلك؟".

ابتسم نبيل ابتسامة تحولت إلى صوت ضحكات غريب ملأ المورستان، ضحكات توسطتها تنهيدات الألم، بعدها حلَّ الصمت **ثم أجاب بصوت متهدج:**

- "دكتور نبيل مات".

اعتدل د. زهير في جلسته وانحنى بجسده نحو المكتب **وقال بحزم وبنظرات حادة:**

- "إذن مَن أنت؟ إلى مَن أتحدث؟".
- "لم يعد ذلك مهمًا".
- "حسنًا، أخبرني ما المهم؟".

أجابه ضاحكًا ومُظهرًا ما تبقى من أسنانه:

- "أنت لا تسأل الأسئلة الصحيحة د. زهير، حاول مجددًا".

قالها واستمر في الضحك والنظر إلى د. زهير، **وظل يردد**:

- "لم يعد ذلك مهمًّا، لم يعد ذلك مهمًّا على الإطلاق".

كان د. زهير يعلم جيدًا أن الحوار مع نبيل سيكون صعبًا، نظرًا لمعرفته السابقة بماضي نبيل، كان على علم أن نبيل لن يعطيه الإجابات الصريحة لما يحاول الكشف عنه.

"د. زهير لم تعد تلك الأسئلة والسخافات مهمة لديَّ، لا تُجهد نفسك بالبحث عن شيء، كنت مثلك تمامًا، والآن أنا عالق بهذا المكان اللعين، مرغم على الجلوس أمامك، لا تحاول، جرب شيئًا آخر، ربما صعقي أو حجزي منفردًا حتى لا أسبب المشكلات مجددًا، لقد اكتفيت من التعامل مع البشر، والآن لا أريد سوى الهدوء، لقد فقدت كل شيء ولا أريد المحاولة مجددًا".

"حسنًا يا نبيل، لك ما تريد، سأكتفي بوصف بعض المنومات، أعلم تمامًا أنك لا تستطيع النوم، وأعتقد أنك ستغير رأيك بعد أن تنال قسطًا من الراحة، وبعدها نحاول مجددًا".

مجددًا تعالت ضحكات نبيل بينما يخرجه الممرض من الغرفة، راقب د. زهير المشهد وهو غاية في الحزن والخوف، لم يعرف د. زهير ما الذي يمكن أن يجعل شخصًا مثل دكتور نبيل يتغير ويتحول ليصبح ذلك المجنون أو العاقل الذي توصل إلى أنه لا يرغب في أي شيء في الحياة سوى الوحدة والهدوء.

ما الذي يجعل شخصًا مثقفًا وطبيبًا نفسيًّا مدركًا وصاحب وعي وعلم، ينهار تحت تأثير الحياة ووطئتها القاسية؟ من المؤكد أنه أكثر صلابة واستقرارًا من الأشخاص العاديين، ولكن الحياة أثبتت أنه من الممكن أن يتحول الإنسان ليصبح د. نبيل المثقف المجنون أو العاقل الموهوم.

أحد أكبر الأخطاء التي يقع فيها معظمنا هو محاولة تغيير كل شيء محيط به، أو خارجه، من دون تغيير الداخل، كأن تحاول تغيير انعكاس المرآة التي تقف أمامها من دون تغيير في حقيقة وواقع الجوهر، لا الانعكاس.

وتستمر القصة والرواية إلى أبعد من ذلك بكثير، في رحلة الهرب من النسيان كلنا عالقون، وكما وعد في البداية...

"ابحث عني وأعدك أنك ستبتسم في النهاية".

مراد توفيق.

تمت،،،

الفهرس

الفصل الأول : لحظات الصحوة..... ٦

الفصل الثاني : المزرعة ٤٢

الفصل الثالث : بيت الحبايب ٦٩

الفصل الرابع : الحكيم ١٠٤

الفصل الخامس : السر مع بير ١٢٤

الفصل السادس : الوحش ١٥٢

الفصل السابع : الفخ ١٨٢

الفصل الثامن : حالة إنسانية ٢١١